www.awu.sy

الأسبوع الأدبي

جريدة تعنى بشؤون الأدب والفكر والفن
تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد «1338» 2013/3/30 م - 19جمادى الأولى1434هـ
السنة السابعة والعشرون

٢٤ صفحة - السعر: ١٥ ل.س

لوحة للفنان التشكيلي شريف محرم

السّيميائيات مفهوماً ومصطلحاً

القلم في وجه الاحتلال «الإسرائيلي» يعطي المبدع الفلسطيني دفعة للإمام

العربية لغة العلم: من هنا البداية

نظرة في مسرح هنريك إبسن..

رأي في قصص ((حنا مينه)) القصيرة

حماة.. وردة القلب

عذابات الروح

الميلاد

نجمة السُّرى

صراخُ الموتى

إليكَ عنّا يا زمنَ الحنظلِ العربيّ!

غالب خلايلي

هل خطر على بال أحدٍ منا أن يسأل يوماً: ما هو بلد (أو مذهب) المتنبي أو أبي فراس أو الرازي أو ابن خلدون؟ وهل أحسّ أحد من الأجيال القديمة والوسطى بأنه لا يفهم زهيراً وعنترة، أو سعيد عقل وأبا ريشة وبدوي الجبل؟

لا يوجد أحدٌ منا، إلا ما ندر، من الأجيال القديمة والوسطى، لا يعرف أحمدَ بن الحسين الكندي (أبا الطيب المتنبي)، فهل خطر على بال أحدنا يوماً أن يسأل: ما جنسية هذا الشاعر؟ هل خطر على البال لحظةً أنه عراقيّ من الكوفة؟ وهل خطر على البال أن أبا فراس الحمداني (الحارث بن سعيد الحمداني التغلبي الوائلي) سوريّ من حلب؟ وأن أبا تمام (حبيب بن أوس الطائي) سوريّ من قرية جاسم في حوران؟ وأن ابن خلدون (وليّ الدين أبو زيد عبد الرحمن الحضرمي) تونسيّ المولد نزح أهله من الأندلس؟

لا أريد أن أعدّد الأمثلة عن ابن النفيس الدمشقي، أو الزهراوي الأندلسي، أو ابن سينا الأفغاني، أو الرازي الفارسي، إذ إنّ أمتنا – ببساطة متناهية- لم تكن تنظر إلى هؤلاء يوماً ما بمنظار ضيق، فعدّتْهم جميعاً عرباً، بعد أن صهرتْهم حضارتُنا السمحةُ القويةُ في بوتقتها.

والحال ذاتها (تقريباً) نجدُها في بلادنا إلى وقت قريب! نعم، إلى وقتٍ قريبٍ نعرفه، مع أننا لسنا في مستوى أمتنا قبل ألف عام. ترى هل فكّر المصريون كثيراً قبل نحو ثمانين عاماً في أن فريد الأطرش وأخته أسمهان سوريّان من السويداء؟ وهل ميزوا نجاة الصغيرة وأختها سعاد حسني عن غيرهما من المصريات فقالوا: إنهما شاميّتان من آل البابا؟ وهل قالوا عن الممثل زكي طليمات: إنه حمصي؟ هل عكّروا حياة هؤلاء بسبب أصلهم غير المصري؟ وهل عاملوا المخرج اللبناني الأصل يوسف شاهين بغير المبدأ ذاته؟ إن هؤلاء، وكثيرين غيرهم، عاشوا في مصر العربية كأنهم مصريون كابراً عن كابر.

وكذا الدمشقيون لم يميزوا بين الشيخ العالم علي الطنطاوي (من طنطا المصرية) وغيره من علماء الشام، بل افتخروا به وبهم كثيراً، وفي الأمس الأبعد قليلاً احتضنوا الشيخ العالم عبد الغني النابلسي (من نابلس الكنعانية) مثلما احتضنوا كثيرين أتوا من جزيرة العرب وغيرها.. ومن أشهرهم المحامي ورئيس الوزراء السوري الأسبق العريق سعيد الغزّي (من بني عامر في غزة هاشم).

وهكذا إذا أمعنّا النظر في أسماء كثيرٍ من العائلات السورية اليوم، لاسيما بالمعنى الخاص، وجدنا أن كثيراً من تلك الأسماء يعود إلى الجزيرة العربية أو مصر أو الجزائر أو المغرب أو القدس أو يافا أو عكا أو غزة أو الخليل أو صفد أو بيروت أو صيدا أو طرابلس أو تكريت أو بغداد أو الموصل أو حمص أو حماة أو حلب أو إدلب أو حوران... (المصري والاسكندراني والطنطاوي والجزائري والمغربي والمكّي والقدسي أو المقدسي والنابلسي واليافي والغزّي أو الغزاوي والخليلي أو الخلايلي والعكاوي والصفدي والبيروتي والطرابلسي والصيداوي والتكريتي والبغدادي والموصلّي والحمصي والحموي والحلبي والإدلبي والحوراني والجزيري....)، ولا يتّسع المجال لحصر أسماء العائلات التي أتت الشام من كل الأصقاع المحيطة، ومن كل البلدان والأعراق (الأرمن، الشاشان، الشركس، المغول، التتر، الكرد، الترك، الأفغان، الصين....)، وأسماء كل هؤلاء تدل عليهم (الأفغاني، الترك، الكردي، التتري...)، أو تتغير مع مرور الزمن، مثلما تتغير سحنات الأوجه مع اختلاط الأعراق والأنساب.

حتى الأمس القريب كان الناس يتنقّلون بين بلدان الوطن العربي بكل سهولة ويسر، مع كل البدائيةِ في وسائل المواصلات، وحينما تطوّرت استوردنا معها كل عُقد العالم، فصار تنقّل المرء بين قطر وآخر، أو بين مدينة وأخرى (في زمن الحنظل العربي) من رابع المستحيلات أحياناً. صار تسجيل طفلٍ في جواز أمه (إذا اختلفت جنسيتها عن جنسية أبيه) مستحيلةً في كل البلدان العربية، وصارت عودة بعض اللاجئين إلى بعض الأمكنة التي منحتهم وثائق سفر صعبةً أو مستحيلةً. وهنا لا بد من التوضيح بأن البلد العربي الوحيد الذي لا يطلب سمة دخول (فيزا) لأي عربيّ من أيّ بلد، ومنذ تأسيسه، هو سورية، تلك التي تعبّر عن اسمها (الجمهورية العربية السورية) بكل معنى الكلمة.

ما المقصود من حديثنا هذا؟

المقصود عظيم، وهو أننا يوم كنّا أصحابَ حضارةٍ، وأصحابَ قرارٍ مستقلّ، انصهر جميع الناس عندنا في بوتقة واحدة، فصار كلّ القاطنين مواطنين عرباً، يتكلّمون العربية ويكتبون بها، ويفتخرون بذلك. هل يذكر أحدكم ما قاله أبو الريحان البيروني العالِمُ الشهير، الفارسي الأصل: «والله لأَنْ أُهْجى بالعربية أحبُّ إليَّ من أن أُمدح بالفارسية!».

ولم يتغير الأمر حتى جاء الاستعمارُ الحديث في عهدٍ قريبٍ جداً، لنرى -مع شديد الأسف- أن ما بعد (الاستقلال) شهد نكساتٍ قوميةً ولغويةً... كثيرةً، بتنا نحصد ثمارَها المرّةَ اليوم.

اليوم –مع تنامي الحقد والجهل في البلاد العربية- نجدُ من يبثّ الفرقةَ والشقاقَ حتى بأثرٍ رجعي، فيسأل عن جنسية ابن سينا والرازي والمذهب الدينيّ لكل منهما، وعن أصل فلان وعلان ومدينته وطائفته، ويحاول بشتى السبل أن يزرعَ في أمتنا الأمراض القاتلة.

يوم كنا في مستوى ابن سينا والمتنبي وابن خلدون، كنّا نفهم ما قالوه وكتبوه بلسان عربي مبين، مثلما فهمنا ما قاله زهيرٌ وعنترةُ وطرفةُ قبل الإسلام، بما يقارب المئتي عام أو يزيد، وما قاله بدوي الجبل وعمر أبو ريشة وسعيد عقل في العصر الحديث، وكان هؤلاء يكتبون بالعربية الفصيحة، بكل اقتدار، وبكل فخرٍ واعتزاز. كان المرء يستحي ألا يتقنَ العربية أو ألا يعرفَها على أقلّ تقدير.

ويوم تخلّفنا لم نعد نفهم حتى الكلام العربي، إلا بلهجةٍ عامية، أو مترجماً إلى اللغات الأجنبية، كما استعصى علينا فهم أشياء كثيرة وخطيرة. والمصيبة أن بيننا من يفتخر بجهله!

ألا ترون أن بعضَنا الجاهلَ المغرورَ أو المغرّرَ به ينخلع (بإرادته أو بغير إرادته) من عروبته وأخلاقه، ويتجرّد من ملابسه؟ ألا ترون أننا بذلك ننسلخُ أو نسلخُ من جلدنا، فنفقد روحنا؟

إن حرباً ضروساً على الجهل والجاهلية، وعلى الأمّية الثقافية والوطنية، قبل أية أمّية، تنتظر كل الواعين المخلصين في المرحلة المقبلة.

التراث والحضارة

عيد الدرويش

التراث سمة انسانية وصفة عامة عند كل المجتمعات والأمم, والإنسان وارث لما قدمه أسلافه من معارف وخبرات يستفيد منها في حاضره, ويضيف إليها من خبرته وتجاربه, ويطورها بعلمه ومعرفته, من أجل بناء حاضره ومستقبله, وإن انتقال تلك السمات الحضارية من جيل الى آخر عن طريق التعلم, يسمى التراث الحضاري على جميع المستويات سواء الثقافي منها بجانبيه المادي واللامادي, ويتحدد التراث بالسمات الحضارية لأمة من الأمم, إنه تركة الأجيال الماضية يتلقاها الأفراد من المجتمع الذين هم أعضاء يعيشون فيه أو ينتمون إليه, ولولا هذه السمات الحضارية لما استطاع المجتمع أن ينمو ويتطور ويتقدم, والإنسان المعاصر مدين لأجياله السابقة التي أورثته كل هذه النماذج التي لها الفضل الكبير في بلورة شخصيته الحضارية وتكاملها.

ويعد التراث زاداً حضارياً ومعرفياً للأجيال, وتشمل العناصر المادية والمعنوية للحضارة, التي تتناوب مع مصطلح الثقافة, وهي تشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق, وكذلك الصناعات والحرف, وكل ما يكتسبه من المجتمع من سلوك متعلم قائم على الخبرة والتجارب والأفكار المتراكمة عبر العصور, وتنتقل من جيل الى آخر عن طريق اللغة والتقليد والمحاكاة, ولا يمكن أن يكون هناك قطع زمني في هذه العملية, فتجربة الإنسان في الماضي تصبح تجربة جديدة في الحاضر, وتشكل زاداً في حياته في المستقبل.

ولدى كل أمة تراثها من جهة, ومن جهة أخرى هناك تراث إنساني عام, كان حصيلة ماضي كل الأمم, ويخص الجنس البشري بأجمعه, وتتفاوت المجتمعات الإنسانية ويعطي مؤشراً لحصيلة تراثها في التاريخ وعمقه, ويعدّ جزءاً لا يتجزأ من مقومات حياتها, وعندما تتنازل عنه, فهي تتنازل عن مرحلة من تاريخها, ولكن الكثير من الأمم التي تعتز به وهذا حق لها, والتراث هو تمثيل لشخصية الأمة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها, ويعني ذلك تمثيلاً لخصائص الأمة وسماتها الحضارية المادية والروحية, فالشخصية القومية لا تولد في الحاضر وإنما هي وليدة إرث أجيال متعاقبة عبر التاريخ, تجارب وخبرات وأفكار, والتراث الحضاري هو العامل الأساسي لوحدة الأمة وبقائها واستمرارها, ويعطي هوية متفردة لتلك الأمة والحضارة, وتنبعث منها خصائصها ومزاياها, وبها تتباين وتتمايز عن الأمم الاخرى, لقد ترك العرب تراثاً ضخماً وغنياً هو ثمرة جهود إنسانية واسعة وعميقة في التاريخ، تمتد إلى حياة العرب قبل الإسلام, وكانت مادة هذا التراث العظيم هي اللغة العربية الغنية بمفرداتها, وكانت الركيزة الأساسية للفكر والإبداع والتنوع, بما قدمته وأضافته إلى الفكر الإنساني.

ويشكل التراث العربي حلقة من حلقات متسلسلة وطويلة من الحضارات الإنسانية المتعاقبة,لأنهأدى ومازال يؤدي الدور الأساسي والمهم في إغناء وتطوير الحضارة الإنسانية, ومن يرنو إلى كتب التراث العربي, يجد مخزوناً كبيراً متعدد الجوانب في العلومكافة؛ سواء في الفلسفة والجغرافية والآداب والطب والفلك والرياضيات وعلم البصريات والعلوم الاجتماعية والفنون والآداب.

إن الاهتمام بالتراث الحضاري ضرورة, كما هو واجب وطني وإنساني, وإن عميلة انتقائية تحتاج أولا إلى الاستيعاب استيعاباً موضوعياً, وذلك عن طريق فهمه وهضمه وتطويره نحو الأفضل وربطه بالمعاصرة, التي تعني استيعاب الحاضر بخصوصياته القومية.

إن رؤية تقدمية وعصرية للتراث هي التي تؤكد على أصالته وضرورة التواصل, وهذا مرتبط بأصالة ذلك التراث وحيويته, ومسؤولية أبنائه, والتواصل يعني ربط الماضي بالحاضر عن طريق استيعاب مضمونه وهضمه وتطويره, وانقطاع التراث يعني فقدان الهوية القومية والحضارية لهذه الأمة أو تلك, والإشكالية التي تواجه طريقة النظر إلى التراث في المجال العربي ناجمة عن الدخول والاستخدام الكبير والقوي للقيم الحضارية الغربية, وتراجع الأشكال التقليدية للفكر في مجتمعاتنا, وتعدد وجهات النظر لتطويره.

ومن هذه النظرة الكلية للتراث يدفعنا الواجب للوقوف بهذه المعطيات، يتبين لدينا أين نحن من هذا وما هو نمط المسؤولية, وما الدور المناط بنا أفراداً وجماعات ومدى مساهمتنا في صناعة التراث ومعطياته للأجيال القادمة, وهل سيذكرنا التاريخ في المستقبل؟ بأننا كنا جزءاً من هذا التراث، وكنا على وجه الأرض, وما المانع من العمل الدؤوب من استلهام ذلك التراث؟

للوطن عيون ترى ما لا نراه

نجدت زريقة

إن كنت تـدري فتلك مصيبة، وإن كنت لا تـدري فالمصيبة أعـظم؛ إذا أسقطنا هذه المقولة على المشهد في بلدنا الجميل الذي يحرق، سنرى ألواناً وأشكالاً لأشخاص يلبسون ثياب العفة والوطنية والإباء وهم براء من هذه الأثافي الثلاث، هل بقي أحد لا يعرف ولا يدري؟! أصبحت الحيوانات المفترسة في غاباتها تدري؛ فالأجيال تعرف وتعشش في ذاكرتها أسماء يحملون الشجاعة والفداء في ميادين الوطن، ومن يتحملون أزماتها وحاجاتها يهون عليهم كل شيءٍ من أجل أن تبقى سورية موحدة سليمة؛ فكلمة جيل تعني أعداداً رقمية (لكن ألا يكفي أن تعرف زوجـك من أنـت؟ قد تبادلك كلمات مرؤوسيك؟! صحيح أنهم يستفيدون، لكن ثق أنهم لا يحترمونك، على الرغم من أنك تؤمن مصالحهم وتشبع رغباتهم؛ فالوطن عندهم هو الأهم والأغلى؛ فالمصالح والمنافع والأموال تزول، أما الأمان والأمن فيوجدان بوطنهم ومستقبلهم.

فهؤلاء يفرقون بحسهم الوطني بين من هو مع الوطن ومن ضده، فليس هناك تعريف دقيق للوطن سوى الحس العالي بالغيرية والشعور الشفاف بالمسؤولية؛ أي امرئ قيمته من قيمة وطنه، وليس بقيمة ما يملك بالنهاية، والملك زائل؛ لهذا قدمت الشعوب ضحايا ودماء وقهراً وذلاً من أجل أوطانهم.

ألم يقدم أبناء سورية الأماجد أنموذجاً للبطولة الوطنية سابقاً؟! واليوم يبدعون في نكران الذات والتضحية التي ستحفظ في اللوح المحفوظ؛ لذلك أيها الفاسدون، السارقون ألم تسمعوا أو تروا صوراً من كبرياء الرجال ومواقفهم وهم تحت المقصلة؛ قلوبهم تعزف نشيد الحب للوطن؟! ألم ترَ أو تسمع ذوي الشهداء الكبار الذين يتسابقون أمام أولادهم ومنهم الوحيد أو الشهيد الثاني وربما الثالث، ليقولوا كلنا فداء لسورية؟! كم هم عظماء هـؤلاء؟! ألم تر نفسك صغيراً قزماً أمام كبريائهم وأنـت السفاح الحقير الـذي تطعن الجيش بظهره عندما تسرق مخصصات الآخرين بلباس العزة، لتقتلهم من أجل حفنة من الأموال؟! فكل شيء له حدود سوى قدسية الوطن ورموزه؛ ألم تر فرحة الشعب السوري بوقفة قائده على منصة الوطن؛ لأن رئيسنا المفدى كان عظيماً يليق بوطنه العظيم، وهذا التحدي صوناً لسيادة الوطن شارك فيه كل شريف وغيور وجندي باسل مع دماء الشهداء.

أما هـؤلاء فيتلطون خلف عناوين وطنية، يخونون كل ما يحويه من أشياء مع تدمير لقيمه وتراثه ومؤسساته؛ فقد أصبح من المفيد اليوم تعرية هؤلاء الغدارين المتسترين علناً ومحاكمتهم وتقديمهم للمشانق، خصوصاً ونحن في حالة حـرب ستكون مفصلية، وكي يبقى المقاتل مصاناً صامداً على الحكومة أن تحاسب من دون رحمة لمن يسيء خلف خطوط القتال، وذلك برفع مستوى المراقبة والملاحظة على مواطن العمل كلها بمحاسبة فورية وعلنية؛ الأمر يا سادة لا يؤجل إلى الغد؛ فأرواح الشهداء وأنين الجرحى وقسمات وجـوه ذويهم وبريق عيونهم من أمهات وآباء وأرامل ويتامى وأطفال؛ بل حتى المؤسسات المدمرة تطالب بصوت عالٍ بإحقاق الحق؛ فالوطن يسمع ويرى، والفاسد لا يرى ولا يسمع، وفي سورية قانون حرب كبقية دول العالم؛ لذا يجب تشكيل محاكم ميدانية كما في القوات المسلحة لإعدام كل من لا ينفذ الأوامر أو يسيء إلى معنويات الجيش؛ فلماذا لا تشكل هذه المحاكم على مستوى المحافظات والمدن؛ فكل أبناء الوطن ينتقلون تحت راية العلم إلى جنود خلال الحرب، فكيف يستقيم الأمر أن نطلب من أبناء الجيش البواسل الاستمرار بالقتال ضد مجموعات إرهابية تصر على تفكيك صمودنا وتدمير شفافيتنا وعروبتنا وإسلامنا، وتدمير بلادنا ظلماً من دون رحمة أو مسوغ بأمر من الصهيونية العالمية، وبالتآمر مع خونة خارجيين وداخلين؛ فنصب المشانق واجب شرعي وإنساني يا سادة لمن يعبث باقتصادنا الذي يسهم في تعزيز مقومات صمودنا وقدراتنا القتالية لاستمرارنا في المعركة؛ فمن يتخاذل ويسرق ويهمل واجبه، ويحتال على مؤسسته لربح ما، هو كالسفاح الذي جاء ليقتلنا؛ بل هو الأشد كفراً وفتكاً لنا؛ لأنه يتلون أمامنا، فجيشنا يحتاج إلى ظهير مؤمن بشعبه ومستقبله، فلن يكون الشعب بهذه المكانة إلا إذا نفذت الدولة قانون الحروب، ولن ينتصر أي شعب العواطف والدموع؛ بل ينتصر عندما نفرق بين المسيء والمهمل والسارق والمبدع بعمله والشريف المخلص والمؤتمن الذي يسعى إلى تطوير أدائه الفردي والجماعي بطاقته العظمى لدعم المقاتل كي يبقى الوطن عزيزاً كريماً، فيجب أن نقدم كل مفردات الصمود مع ترسيخ الروح الوطنية العالية، وتعزيز الإباء للحفاظ على الوطن وعلى جيشنا الباسل وعلى نسلنا حتى الذئبة والكلبة تحرس نسلها فلا يمكن الارتقاء بما نحلم به اليوم إلا بحماية الشعب الواعي المعطاء الذي دوخ العالم بأسره، فآن الأوان أن نقول لهؤلاء:

قفوا إنكم لسارقون.

الافتتاحية

حسين جمعة

بين الأزمة والثقافة والرغبة

تكمن علة الأزمة السورية والعربية في ضعف الجوهر المعرفي والخلقي والإرادة الذاتية الخلاقة ومن ثم في الاضطراب الذي وقع في جوهر قيم المواطنة الأصيلة المستندة إلى حب الانتماء الصادق والحرية والديمقراطية والمساواة والتنافس وسيادة القانون واستقلاله؛ فكل من الجوهرين تراجع إلى مواضع قصية من النفس بعد أن مثل حالة المناعة الذاتية الفردية ثم الجمعية، فكانت تقف شامخة في مواجهة عوامل الإحباط والقهر و... وهذا كله يفرض على الجميع إعادة إنتاج ميثاق اجتماعي وطني يستند إلى مفاهيم سيادة الوطن والأمة؛ ويحافظ على وحدة الأرض والشعب والهوية.. أي إن غياب الجوهر الثقافي الوطني المستند إلى مبادئ الحق والخير والجمال قد عَرَّض الذات الفردية والجمعية لِمقتلةٍ عظيمة حين أصابتها أخطار شتى على الصعيدين الداخلي والخارجي... فعلى الصعيد الفردي كانت تنوء بحمل ثقيل من الجهل والتخلف والانحدار والاضطراب والتردد والقلق والخوف والظلم والقهر والفقر وسيطرة النزعة الفردية والأنانية مع التقصير والعجز... وعلى المستوى الجمعي الوطني أصيبت بأوزار داخلية وخارجية من الانحدار الخلقي في حكم القيمة والمبادرة الخلاقة والاستقامة الصادقة وانتهاك مبادئ العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية..... ثم الضياع الكامل لكل مقومات التعاون والتكامل... ثم السقوط في الاستلاب والتبعية والخيانة والرضى بالتدخلات الخارجية؛ والتخاذل أمام تهديدات الدوائر الغربية/ الصهيونية لسيادة القرار الوطني...

وإذا كانت هناك أطراف سورية في الداخل والخارج ضالعة في الأزمة المعقدة والمركبة منذ سنتين، ومصرة على تأجيج الفتنة فيها فإنها ما تزال منغمسة برفض المبادرة إلى الحوار بين السوريين، بفعل تأثيرات عربية وإقليمية ودولية. وهذا يشير إلى أمرين؛ الأول عدم الرغبة بالحوار أو ترددها فيه، وعدم القبول بإيقاف إطلاق النار، والثاني يشي بأنها تريد إشعار النظام السياسي بهزيمته، أي إن بعض أطراف المعارضة يمارس ضغوطاً وشروطاً أقل ما يقال فيها: إنها غير منطقية... وهذا ما لا ينبغي أن يوفره الحوار الوطني الشامل لأي طرف يريد النيل من سيادة سورية واستقلالها؛ ووحدة أرضها وشعبها؛ على شدة الآلام التي نالت من بعض مكونات الدولة السورية الوطنية وبناها التحتية...

ومن ثم فإن الطرف الذي لا يريد الحوار بوصفة يبتغي السلطة؛ فقط، إنما يصر على إبقاء الحال على ما هو عليه ما يجعله يمارس الضغط السياسي والعسكري المؤيد بموقف بعض الدول الغربية والعربية والإقليمية مثل حكومات قطر والسعودية وتركيا وبريطانيا، فضلاً عن الجامعة العربية وأمينها العام نبيل العربي... فكل منها يمارس ضغوطاً قاتلة للشعب السوري بحجة حمايته والدفاع عنه، لأنها قررت الانحياز المطلق إلى جانب المعارضة عامة؛ وائتلاف الدوحة خاصة؛ وأصرَّت على تزويدها بالسلاح والمال والمساعدات اللوجستية الأخرى... ولعل ما خرج به بيان وزراء الخارجية العرب في القاهرة إبان اجتماعات الدورة (139) لمجلس الجامعة العربية في (2013/3/6م) يؤكد ذلك، إذ أثبت بعض وزراء الخارجية العرب من جديد التردي الخلقي لهذا المجلس ومخالفته لميثاق الجامعة بالإعلان عن نيته بإعطاء مقعد سورية للمعارضة وهو مالم يحدث في التاريخ الكوني..

أما أمريكا فمازالت تمارس النفاق الوقح؛ والخداع المزيف للحقيقة وفق سياسة (فن الممكن) أو سياسة (فن إنتاج الضرورة)؛ إذ تبشر العالم

البقية.....ص22

لماذا الأسلَمَة؟

حسن ابراهيم أحمد

يجد السؤال مشروعيته في الحضور الكثيف للمعاني والرموز والنشاطات الإسلامية في كل مجريات الحياة التي يعيشها المسلمون بعامة، والعرب منهم بخاصة، فربما كانت البلاد العربية تفوق غيرها في هذا الجانب بسبب اللغة والثقافة العربية التي تردف المعاني الإسلامية. كما يجد مشروعيته في خضم هذا الواقع الذي يعلن تخلفنا عن شعوب العالم، وعجزنا عن تغيير واقعنا.

يتمظهر هذا الحضور الإسلامي في استيلاء الإسـلام على الفضاء العام للحياة عند العرب والمسلمين، من دون أن يعيد هؤلاء قراءة تاريخهم الإسلامي، وهو التاريخ الـذي لم يجر على نسق واحد. فالإسلام الذي لم يغب سياسياً عن الفضاء العام للمسلمين، وإن كان قد انتهى العمل بنظام الخلافة منذ عام 1924 على يد العلماني التركي كمال أتاتورك، كان قد حقق الأمجاد للمسلمين وبالمسلمين، في المراحل الأولى أو القرون الأولى من ظهوره، إلى أن بدأ تراجع قوته سياسياً. ويؤشر على ذلـك بسقوط الخلافة العباسية، وثقافياً، ويؤشر عليه بموت ابن رشد 1198م، الذي يرمز إلى تعايش الفكر الفلسفي مع الدين كفاعلين في الفضاء الثقافي، مع ما لاقاه ابن رشد من عنت رجال الدين وأثرهم في السياسيين. وبتراجع الفكر الفلسفي العقلاني، أصبح النقل سيد الساحة الثقافية، ما أغـرق المجتمع والثقافة بحالة من التزمت والانكماش.

منذ ذلك الحين لم يغب الإسـلام عن الحياة بجميع جوانبها، لكن يمكن التأكيد أن حضوره كان مختلفاً، فقد بدا راعياً للتخلف، أو بالأحرى كانت الشعوب الإسلامية تتردى وتتخلف باطراد، وهو الحاضر الأقوى والضامن لحياتها من دون أن يكون قادراً على انتشالها من الانحطاط. وإذا كان هناك من يشير إلى الأمجاد التي حققها الأتراك العثمانيون المسلمون الذين هاجموا أوربا، بقوة وامتدت إمبراطوريتهم الإسلامية على أجزاء منها، مثلما امتدت على أجزاء واسعة من عالم الإسلام السابق، إلا أن الحضور الأقـوى في حراكهم كان لتركيتهم، بالمعنى العرقي أو القومي، أكثر منه لإسلامهم، مع استخدام الغطاء الإسلامي جيداً، لكن العالم الإسلامي الآخر بدا متخلفاً منهكاً، وقد زاد الأتراك تخلفه وإنهاكه.

ليس المقصود بالإسلام في كلامنا، الإسلام الرسولي أو النصي، بل الإسلام التاريخي بتحولاته، الذي يستدعي طرح الأسئلة بوصفه المهيمن على الفضاء العام: كيف سمح هذا الإسلام بتخلف الأمة وكان هو الحاضر الأول وغير المنازع، أو المفتقد للمنافسين الذين يتهمون اليوم بتخريب الأمة والحياة والبلاد، من علمانيين وغيرهم، بحسبان أنهم لم يكونوا قد وجـدوا بعد؛ لأن ذلك حدث قبل الاتصال بأوربا؛ بل قبل العصور الحديثة؟ لماذا لا يشار إلى تحمل الإسلام بحركته التاريخية الاجتماعية والسياسية والثقافية، مسؤولية تراجع الشعوب الإسلامية، وكأن هناك رعباً ضمنياً من الإشـارة إلى أن النظم الإسلامية لم تعد صالحة بصيغها الخلافية أو السلطانية السابقة لقيادة المجتمعات قيادة تنافسية مع شعوب العالم الناهضة؟ لـماذا يبحث عـن المخارج فـي رمـاد الفشل وليس في حيوية الحياة المبشرة بمعان وآفاق جديدة، من دون أن يـعني ذلك نفي الإسلام كعقيدة ومعان وآفاق روحية وأخلاقية؟ والأهم: هل يستطيع من قاد الأمة إلى الفشل والضعف، وعليه ألا يتردد في تحمل المسؤولية، أن يقود العودة للنهوض؟! وإذا كان لديه هذه الطاقة والقدرة، فلماذا لم توظف في تلافي السقوط والانحطاط وعدم حدوثه؟!

كثيرة هي الأسئلة، لكنها لا تقدم مسوّغات ولا إجابات محتملة يستوعبها الناس، وما من شك أن المسلمين بفئاتهم الواعية أو المثقفة، على وعي ودراية بهذا الذي أشرنا إليه، لكنهم يعملون على التعمية عنه واستبعاد النظر إليه، لأن مزاج العامة من البسطاء المتدينين يصنع لهم الحضور، ويستجيب لنداء الإيمان الذي يستخدمونه، والذي يغيِّب ويهمل نـداء العقل، مع الإشـارة إلى أنه ليس هناك مسلم عاقل يرغب في انحسار الإسلام بجانبه الروحي والأخلاقي، إنما يمكن القول إن من يستخدمون عقولهم يعرفون أن أية منظومة قدمت تجربتها، لا تموت أو تتراجع ما لم تستنفد طاقتها، وما استنفد طاقته- ومن ذلك الإسلام سياسياً- لا يعود قادراً ولا صالحاً ولا منافساً إنقاذياً فاعلاً.

من يتدبر الأسباب التي تجعل من الإسلام، أو الأسلمة، معبراً آمناً إلى مستقبل سياسي تنافسي للمسلمين، مع شعوب العالم الأخرى، يدرك أن أمراً جديداً لم يحصل للإسلام يجعله حالة إنقاذية، بالتالي إن ضمان الخروج من حالة الفشل الحضاري والتخلف لا يضمنها هذا القادم الإسلامي. لكن من الأسباب التي تؤهله للحضور، مرغوباً كان أو غير مرغوب:

فشل الفكر العربي الحديث في إنتاج خطاب سياسي (نظرية) آخر يحوز درجة من الإقناع، وينتج حراكاً عملانياً له من المصداقية ما يجعل الجماهير تلتف حوله. وإذا كانت التجارب الشعبوية التي رفعت شعارات التقدم قد توهمت أنها حازت هذه المصداقية، فإنها برهنت عن فشلها عند مقاربة الواقع، بدليل ما آلت إليه المجتمعات التي قادتها؛ حيث عادت للالتحاق بالإسلام أو الليبرالية البرجوازية، كبديل عن الاشتراكية التي كانت ترفع شعارها. الأهم من ذلك في تقويم هذه التجارب ودراستها، أو هذه الخطابات الفكرية التي أنتجتها نظم انقلابية أو أنتجت هي نظماً انقلابية، أنها لم تعتمد فكراً صريحاً ينحاز إلى المستقبل مثلاً، بل إنها حاولت أن تكون توفيقية في خطاباتها، تمزج العروبة بالإسلام، والزمني بالروحي، والتقدمي بالرجعي، والتاريخ بالمستقبل، وتجعل من الماضي الثقافي والروحي والحضاري مسوّغاً أو معبراً إلى مستقبل لا تعرف كيف يكون، إلا أنها تشتهي أن يكون كما تراه في واقع الحياة في البلاد الغربية. وهذا خيال لا أدوات واقعية له.

لقد مزجت هذه التجارب الفكرية السياسية بين الفكر والثقافة الغربية، وبين الإسلام والتجربة العربية الإسلامية تاريخياً وحضارياً، بالتالي حصلت على توصيف هجين لمستقبل لم تستطيع إنجازه أو السير حثيثاً نحوه، وإذا أضفنا إلى ذلك خور عزيمة القائمين على هذه التجارب، وحماستهم غير المعقلنة، وعدم صدق توجهاتهم، وانتشار الفساد في أقانيم الحياة التي أقاموها، ندرك لماذا آلت هذه التجارب إلى الفشل، وكل ذلك أصبح مكشوفاً وموصوفاً وغير مدافع عنه، مع أنه يمكن الإشارة إلى إنجازات هامة في بعض جوانب الحياة أنتجتها هذه النظم، مثلما هو ظاهر في مجال التعليم أو الصحة والبنية التحتية. لكن الأمور بخواتيمها، والإنـجـازات ليست تلك المحصورة بالجزئيات، إنما هي في إنجاز مشروع حضاري عام وشامل.

وإذا كان البحث عن الأسلمة هو هدف حديثنا، فـإن التناقض الـذي عاشته هـذه التوجهات والتجارب التي وصفت نفسها بالحداثية على المستوى الفكري والعملي، يؤشر إلـى حضور الأسلمة فـي كـل جـوانـب هـذه التجارب نظرياً وعملياً؛ فعند تناول التجربة الناصرية أو البعثية، وهما التجربتان الأكثر وضوحاً وحضوراً في العالم العربي، واللتان أرادتا التشبه بالماركسية من بعض الجوانب، من دون أن تفقد أيّ منهما إسلاميتها، تظهر الهيمنة وعلائم الفشل، لأن الجمع بين هذه المتناقضات والمتصارعات، لن يؤدي إلا إلى ما حصل عليه الغراب الذي أراد أن يقلد مشية الحجل، وعند فشله لم يستطع العودة إلى مشيته.

ما تجدر الإشارة إليه أن الماركسية المكروهة إسلامياً، لم تكن يوماً مشروعاً عربياً، ومن أراد من العرب توظيفها سياسياً لم ينجح كثيراً، وبفشلها في أوربا الشرقية تراجع زخمها عربياً مثلما حدث عالمياً، لكن الإفادة من بعض عناصرها الفكرية كان واضحاً في المشاريع القومية واليسارية. وبفشلها حسب الصيغة التي ظهرت بها عالمياً، انتعش الإسلام أكثر، مبشراً نفسه بأن يكون بديلاً صالحاً، متناسياً فشله الكبير على مدى قرون وقرون.

لم يكن الجمع بين المتناقضات ممكناً على المستوى الفكري العقلاني، لكن لم تكن المغامرة بخسارة القوى الحداثية أو القوى التقليدية أمراً محبذاً، ومعروف مدى ما يمكن أن تفعله أية قوة من هاتين لنظم الحكم الوليدة، إذا تم التنكر لأي منهما، خاصة أن الإعلان الواضح هو التوجه نحو الحداثة، وهو الإعلان الذي سقط عند أول امتحان، وهو امتحان عدم النص على دين رئيس الجمهورية أو على مصدر التشريع ودور الإسلام في ذلك في الدساتير المقترحة، ما دفع الحاكمين الثوريين للنزول عند رغبة القوة التقليدية الإسلامية والنص صراحة على دين رئيس الجمهورية وعلى الإسلام كمصدر رئيسي للتشريع.

لـقـد كـان خـطـاب أقـطـاب هـذه الـحـركـات (التقدمية) معبراً عن الإسـلام صراحة، وبعض أقطابها من غير المسلمين، أعلنوا إسلامهم، مثل (ميشيل عفلق)، وكأنهم يقولون إن صلب حراكنا هو الإسلام والعودة إليه، بدليل التمسك بمفاخر العصور الإسلامية كمواقع يطمح التقدميون للاقتداء بها، ما يعني أن الإسـلام لم يغب عن الحركات التي نشطت باسم القومية والاشتراكية؛ بل يبدو أنه كان مضمونها غير المعلن، أو الذي يظهر بين المواربة والصراحة.

توجه حداثي مشبع بالرغبة الجامحة بالانتماء إلـى العصر الغربي، لكن بعقل تقليدي بدوي عشائري طائفي إيماني متنكر لعقل الغرب، مع تسويغ الإفادة من تكنولوجياته. كيف يستقيم ذلك؟!

إذا كان الفكر عقيماً لم ينتج مشاريع تقارب الواقع إلا أن يكون الإسـلام أحد مكوناتها، فإن الواقع لم يكن أسخى في تقديم أنموذجات لنظم سياسية واجتماعية مبتعدة عن الإسلام أو لا توظفه في حراكها وأنشطتها، حتى أن تلك النظم التي أشرنا إليها، واعتمدت الشعبوية أو حاولت تعبئة الجماهير، كما أرادت الإفادة من الحديث والقديم، كانت تحاول اجتثاث الإسلاميين في حروبها معهم متوسلة العنف العاري، لكنها تزرعهم من جديد في محاباة للإسلام والمسلمين الذين تحاول تجييشهم، وتدفع الناس بمعونة رجـال الدين للالتفاف حولها وتأييد مشاريعها، فاشلة كانت أو ناجحة.

لقد لاحق عبد الناصر الأخوان المسلمين ونصب لهم المشانق وأودعهم السجون، ومن جهة أخرى كان تشجيعه للأزهر وتحويله إلى جامعة لتغطية أفعاله وتسويغها دينياً، أمراً ذا مردودية، فهو يعلم أنه لن ينجح في مجتمع فيه هذا القدر من الإيمان الإسلامي بعيداً عن الفكر والحداثة، إذا هو وقف من دون أن يكون الإسلام برجاله ومؤسساته الفاعلة إلى جانبه. وكذلك الأمر في سورية يجري العمل في ظل جبهة وطنية تقدمية على ملاحقة المتأسلمين مـن جهة، وتفتح لهم المعاهد الدينية وكليات الشريعة وتدعم المساجد وتقدم لهم المنابر الإعلامية، ما يعني استنباتهم بفاعلية ثقافية تعيد لهم زخم الحضور مستقبلاً، خطباً لودهم، أو لإقناعهم بعدم مشاقة أنظمة الحكم المنتمية إلـى الحداثة، لكن غير المتخلية عن الإسلام، بل المحافظة عليه.

لو نظر أبناء العالم الإسلامي بدوله العديدة إلى الوراء قليلاً، وإلى الواقع الذي يعيشونه، فإنهم لن يجدوا أنموذجاً فاعلاً ومقنعاً وصالحاً لواقعهم على أسس حديثه، أي بعيداً عن الإسلام، ولو حصل ذلك لكان مشجعاً للقوى الحداثية الوطنية، أو غير الدينية وغير المتأسلمة التي تؤمن بطريق آخر، على ارتياد هذا الطريق واتباع هذا الأسلوب الذي بدا نجاحه في مواقع الإسلام الأخرى. وهكذا تكتمل الصورة، افتقاد النموذج الناجح وغير الإسلامي في الماضي، وعدم الاهتداء إليه في الحاضر.

ثم قد يقول قائلهم: هذا هو الأنموذج التركي، إنه يحسم الجدال حول ما يريده المسلمون وما يصلح لهم، انظروا إليه. لكن الأنموذج التركي هذا لم يعبر عنق الزجاجة تماماً بعد، وبكامل النجاح أولاً، وهو ثانياً يعود لاستثمار الأسلمة، فكأنه يقول أيها المسلمون لا تجربوا مشاريع أخرى غير الإسلام لأنكم ستعودون أخيراً إليه مثلما عدنا. والمعلوم أن تركيا التي بدأت تنحو غرباً منذ بدايات القرن التاسع عشر، وكان لها تواصل مع الغرب الحديث بشكل حثيث قبل ذلـك، وقـد دلـت التشريعات التي جاء بها خط كلخانه وخط همايون منذ الثلث الأول من القرن التاسع عشر على أن تركيا تتجه نحو الغرب الحديث هاجرة الإسلام بالتدريج، كما دل على ذلك استبدالها بالقرآن دستوراً له طابع أوربي أواخر القرن التاسع عشر. ثم جاءت النقلة الأتاتوركية بعد الحرب العالمية الأولى، وقد قاربت القرن من الزمن، ثم بعد ذلك تعود تركيا لتقول إن من انتصر، هو الإسـلام في النهاية، بثقافته وتوجهاته، وها هي تركيا إسلامية من جديد، ما يؤكد أن علمنة السياسة والمؤسسات ليست ضامناً، بل الأهم علمنة المجتمع بسواده العام طوعاً من دون إكراه. مع التأكيد أن الحياة السياسية في تركيا لا تزال مفتوحة على صراعات محتملة بين الإسلام والعلمانية، وقد لا يستتب الأمر للإسلام هناك بالرغم من الزخم الجديد الذي شعر به مؤخراً.

ما لاشك فيه أن الإسلام التركي ليس فيه كثير من الإسلام كما يبدو، لكن العنوان إسلامي. وفي تركيا كما في كثير من الحواضر الإسلامية، يكتفى بعدم التصريح بالعداء للإسلام أو مشاقته، حتى لو كانت الحياة تسير على غير هديه. ولكي يكون كلامنا ذا مصداقية نسأل: ألا تسير الحياة الاقتصادية للمسلمين بإشراف الملتزمين منهم بمبادئ الإسـلام، وتحت سلطتهم، بنظم غير إسلامية، وفي أغلب دولهم، حتى أن الربا الحرام لا يجد من يستنكر التعامل به؟ ألا نجد مبدأ القوامة مثلاً، والـذي يدافع عنه الإسلاميون، لا وجـود له في عالم اليوم في المجتمعات الإسلامية؟ وغير ذلك كثير في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها، من دون إعـلان التخلي عن المبادئ فيها.

من هنا نعود للتأكيد أن المجتمعات العربية تفتقد الأنموذج الفاعل، فلا هي واجدته في ميدان الحداثة، ولا هي راكنة إلى نظام إسلامي نهائي في العصر الحديث، وكل شيء فيه يجافي الإسلام،

←

من الحياة الخاصة حتى العموميات، لكن تبقى الأنموذجات الإسلامية القديمة هي التي يتقدم بها الإسلاميون كبرهان على جدارتهم وهي غير صالحة لعصرنا.

هناك واقع لا نستطيع تجاوزه، هذا الواقع يشير إلى غلبة عقل إيماني غير متحرر من قيم الخرافة والأسطورة والسحر والدروشة والكرامات وهيمنة رجال الدين، وإذا كان المثقفون الإسلاميون أو المتأسلمون على درجة من الثقافة، رفيعة عند بعضهم، فإن عموم جماهير الإسلاميين يسايرون البساطة، ويجذبهم الحديث باسم الدين فترتفع صيحاتهم (الله أكبر) متعجبين بما يقوله الشيخ المحدث، حتى لو كان حديثه شتيمة لهم أو دعاء عليهم، ولننظر إلى مجالسهم، فها هو الشيخ محمد متولي الشعراوي يقول لمن حوله، إن حجاب المرأة يجعل الرجل يتأكد أن أولاده من صلبه، فتعلو الصيحات إعجاباً، مع أنه يشكك بعض السامعين بشرف نسائهم. ومثل هؤلاء هم من يتلقى فتوى الشيخ عبد الباري الزمزمي بحق الرجل بالاستمتاع جنسياً بزوجته المتوفاة قبل انقضاء ست ساعات على وفاتها، تحت اسم جماع الوداع، فيقبلون الفتوى من دون أي استنكار!!

هذه الثقافة المنتشرة بين عموم المسلمين وبسطائهم، والتي لا منافس لها، تجد الحماسة الكاملة، وهذا ما يسمح لقادة التأسلم أن يغربوا ويشرقوا في أقوالهم وفتاويهم التي يتلقفها الناس. فمرشد الإخوان المسلمين (محمد بديع) وفي مجلسه مع أنصاره، يريد الغمز من قيمة عبد الناصر وما فعله لمصر، فلا يجد إلا تبخيس قيمة السد العالي الذي بقي المصريون يغنون له سنين طويلة، كإنجاز ليس كمثله كما يؤكد بديع، وهو لكي ينال من قيمة الحاكم الذي رعا بناءه وهو جمال عبد الناصر، يتناسى ما قدمه السد العالي من حماية لوادي النيل من الفيضانات ومن ضمان الأمن المائي لمصر بما يخزنه في بحيرته ومن توليد للطاقة الكهربائية وفائدة للزراعة، وهو إلى ذلك إنجاز وطني فذ ورفيع، فيقارنه بسد ياجوج وماجوج المذكور بالقرآن، ويذهب في التحليل الهندسي ليخرج بنتيجة يعجب لها جمهوره الذي يسخر من عقولهم بالقول إن عبد الناصر مهما فعل ومهما بنى فإن القدرة الإلهية أكمل عملاً وأقوى، وكأنه بذلك أخرج الزير من البير، وينال إعجاب جمهور حظه من الثقافة قليل، لا يحلل ولا يحاكم عقلياً، فيرضى بما يقال له، وهو لا يفرق بين مثل إيماني هدفه الهداية والاعتبار، وبين منشأة هندسية رفيعة.

هكذا يكون اللعب على الثقافة الجماهيرية واستغلالها لجلب الإعجاب والتأييد للنهج الإسلامي، من دون أن يكون فيها ما يقدم أو يؤخر في تغيير واقع الناس، سوى بقائهم غارقين في الجهل واللاواقعية التي تغيّب العقل والمنطق لتعطي النصيب الأكبر للدهشة التي بها يسيطر الزعيم المؤمن على مريديه بثقافة هدفها الإبهار والتعمية. ولو كانت الدهشة نتاج الواقع لكانت مقبولة، لكنها نتاج فعل غيبي يعمل عمل السحر، فيصادر العقل أو بقاياه، لأن الكثيرين من المؤمنين وضعوا عقولهم في حال الاستقالة من مواقع التفكير.

إن إغراق المؤمن بالفكر غير العقلاني الذي يساير التوجهات الإيمانية وتتم المحافظة على ديمومته، يبعد الناس عن التفكير بعلمية بما في واقعهم من إشكاليات، وبطرائق الخروج من المآزق الحياتية التي تحتاج إلى استنارة عقلية، فيكون التوجه نحو التفكير في النجاة من عذاب الآخرة، ونسيان إيجاد المخارج لمآزق الواقع.

لقد بدا فكر الصحوة بديلاً للفكر العقلاني، بهدف الإمساك بخناق المجتمع من الجانب الإيماني، ليصحو الناس على علاقة تربطهم بالغيب، حتى لو قطعت روابطهم بالواقع الذي يطبق على أنفاسهم. فالصحوة هي صحوة إيمانية دينية لا علاقة لها بالصحوة من التخلف، أو بالصحوة تجاه ما حققته شعوب العالم، وعلى هذا الأساس تعمل التنظيمات الإسلامية التي تبدأ دعوية صحوية لتنتهي سياسية، قد تعلن التوجه نحو الديمقراطية لكنها في الغالب قد تنتج الإرهاب.

لكي يكون ذلك ممكناً، وفي ظل التبعية للأجنبي منذ ما يزيد على قرن من الزمان، لا بد أن يكون لهذا الأجنبي الدور الفاعل في تمكين العقل الذي يضمن له دوام الهيمنة على مقدرات الشعوب وفضائها الفكري والعقلي، بالطريقة التي تناسبه، من هنا كان دعم الاستعمار البريطاني لآل سعود ضد الشريف حسين، وللفكر الوهابي الذي فرَّخ إرهاباً وقضى على الاعتدال. ومن هنا أيضاً كان دعم بريطانيا للإخوان المسلمين، بل ربما كانت وراء وجودهم الذي تم برعايتها، وتمدد ليحوز على عقل مجتمع يتطلع إلى التحديث والتحرر، فينتج الصحوة. ولقد كان الغرب ملجأ لكل هؤلاء عندما ترفضهم مجتمعاتهم بسبب تطرفهم، فيرعاهم ويقدم لهم الدعم والحماية باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان، مع أن هؤلاء يعلنون رفضهم الصريح للديمقراطية وحقوق الإنسان، إلا من زاوية فهمهم الضيقة، أي التي تأتي بهم إلى السلطة.

لقد كان الغرب يلعب لعبته بدراية ومعرفة، فيقدم لكل مجتمع ما يناسب دوام استتباعه له، فكان دعم الوهابية في شبه جزيرة العرب الغارقة في التخلف الفكري والثقافي أيامذاك، وكان الإخوان المسلمون لمصر المنفتحة على الثقافة الحديثة، والفرق بين الحركتين كالفرق بين المجتمعين الموضوعين في التبعية، وقائد الأوركسترا الذي لا يزال يعزف مواله ويلعب لعبته، هو القوى الامبريالية العالمية المقودة بالنظرة الليبرالية التي تعلن دفاعها عن حقوق الفرد وتتغاضى عن قتل الشعوب. فتؤمن بذلك الدفاع عن أعتى الحركات المتطرفة في الوقت الذي توهم العالم بإعلان الحرب عليها بوصفها إرهابية، وهي التي توظف في خدمة مشاريع الغرب للسيطرة، مثلما حدث في توظيف القاعدة في أفغانستان، وكما يجري توظيف كل التطرف الإسلامي في ليبيا وسورية بعدها.

وتبقى الأسلمة مرعية بنظر المسلمين وجهودهم، هم الذين خذلهم التقدم والعقلانية والعصر، وبجهود الغرب الذي يستثمر كل ذلك، وتبقى القوى العقلانية العربية في حالة عجز عن اختراق الواقع، تعاني عجزها وقصورها، وتداري خيبتها وشرفها المنتهك مثل ملكة فوجئت في حمامها، تأسف على غفلتها وماضيها وتفريطها.

لقد عرف الغرب كيف يخلق ويرعى هذه التوجهات، وكيف يضمن رجعيتها لتقعد بمجتمعاتها عن التقدم، وبحيث تبدو خط الاعتراض الأول ضد قوى التقدم، وبحيث يضمن الهيمنة على المجتمعات وكيف يوظفها من دون عناء لتكون ضامن التبعية له، وتحت وهم مساعدة الشعوب على تجاوز عقبات حياتها.

الخاسر هو الجماهير، الإنسان العربي الذي لم يتخل يوماً عن إسلامه إن كان مسلماً، لكنه الإسلام الذي لا تقوده تنظيمات يرعاها الغرب، وما من شك أن الإسلام لم يعدم الطاقات التقدمية، لكن ليست هذه التي تهتدي بتاريخ الفشل والتي تؤكد حضورها الجامح في أعقاب كل حركة اجتماعية، في الوقت الذي يثير خطابها وحراكها رعباً في أوساط المسلمين المطمئنين إلى إيمانهم الهادئ، ولدى غيرهم من الفئات. ولقد وقفت على أغلب هذه الموضوعات في كتاب نشر سابقاً بعنوان: (الإسلام بين الإشكالية والحل- سجالات فكرية مع شعار الإسلام هو الحل).

أزمة الواقع العربي المعاصر
(١٩٤٨ـ ٢٠٠٧)

فرحان اليحيى

1 ـ العلاقة بين الواقع والفكر:

إذا كانت الأزمة هي السمة الغالبة على الواقع العربي الراهن، فإن أهم ما يميّز هذه الأزمة من أزمات المجتمعات الأخرى، هي أنها تشمل الواقع والفكر معاً؛ لأن العلاقة بين الفكر والواقع علاقة جدلية ديناميّة خلاّقة، انطلاقاً من معلومة مفادها أن الواقع مصدر الفكر والأحاسيس، لأن الحواس أدوات نقل الواقع، والعقل وعاء الفكر. تأكيداً على أسبقية الواقع على الفكر أو الوجود على المعرفة، وحين يتغيّر الواقع يتغيّر الفكر من خلال جدل الظواهر وأضداد الكون عبر عمليات التفاعل والصراع داخل البنى المادية والثقافية والاجتماعية. إذ يقدم الفكر حلولاً وإجاباتٍ عن أسئلة الواقع الراهن والمشكلات التي يطرحها من خلال تصدي الفكر للواقع والتعميق في فهمه واستيعابه. ومن هنا يبدو الواقع أكبر من النظريات، لأنه متجدد ومتغيّر باستمرار. لذلك، فإن النظرية أو الأيديولوجية بماهي منظومة أفكار ومفاهيم ودليل أو منهج فكري ـ فلسفي مالم تتطور وتستوعب مستجدات الواقع، تجد نفسها متخلفة عن الواقع الذي أنتجها، وبالتالي تصبح جامدة وعاجزة عن معالجة الراهن وتجاوزه، وهذا ما حدث ـ في اعتقادنا ـ للأيديولوجيات الكبرى كالماركسيَّة التي استحالت إلى عقيدة جامدة، مما أدى إلى انهيار الأنظمة الشيوعيّة ممارسة لا فكراً وكذلك الأيديولوجية العربية، لأن الأيديولوجيّة يطغى فيها الجانب العملي ـ التطبيقي على النظري. وقد عرفت مجتمعات كثيرة في التاريخ الحديث أزمات حادة، ولكن، على حدّتها، أزمات خصبة ومفتوحة، فواجهتها تلك المجتمعات بفكر التحدّي، أو جدل الفكر والواقع، وبثورات حوّلتها من أوضاع متردية إلى أوضاع جديدة أكثر تقدماً، وحققت إنجازات نوعية أتاحت لها أن تتجاوز ذاتها وتحقق فيضاً من التطوّر.

ونورد مثالاً يوضح ما نعنيه. فألمانية في مرحلة مابين (1750 ـ 1830) كانت مجزّأة ومتخلّفة جدّاً عن دول الغرب كفرنسا وبريطانيا وإيطاليا، ومع ذلك أعطت أعظم فكر عالمي في ميادين كثيرة، أنتجت أعظم فلسفة في تاريخ الإنسانية، بدءاً من كانت إلى هيغل، وموزارت، وبيتهوفن، وفون هومبولت، وكلاوزفيتز وآخرين كثيرين. كيف ذلك؟ لأن الفكر عندما يقرر الاضطلاع بدوره يطرح الأمور بعمق وشمولية. وهذا ما حدث في ألمانية فعلاً. فوظيفة الفكر ـ إذن ـ هي ترشيد الواقع وتوجيهه أي استباقه وريادته بل التفاعل معه. لكن لابد للفكر حتى يقوم بوظيفته البنائية هذه، أن يكوّن معرفة، فالفلاسفة الألمان لم يلهثوا وراء الثورة ولا وراء السلطة، وإنما قاموا بواجبهم وحرفتهم: الفكر، والمعرفة، احترموا الكلمة ومارسوا الفكر بعمق وعقلانيّة، ثم انتقل الشعب الألماني، بعد ذلك، إلى الفعل، لأن أزمة الواقع هي أزمة الفعل بوصفه نتاجاً للعقل. هذا الدور أو هذه السمة يجهلها المجتمع العربي المعاصر، بينما كان هذا الدور مجسَّداً تجسيداً فعليّاً في الحقب التاريخية العربيّة المزدهرة.

إننا الآن نعيش في واقع متخلف على كل الصعد، وإن مراكمة الأزمات وبلوغها درجة التعقيد لا يضع المجتمع على عتبة الانفراج أو الحل، بل يخضعه لقانون الارتداد والعطالة الحضارية؛ أي الانتقال من سيِّئ إلى أسوأ، مع هاجس توقع الأكثر سوءاً وترديا. وليس من العسير أن نعرف سرّ هذا العقم والعجز؛ ففي حالات الأزمات الخصبة والمفتوحة يقوم بين الفكر والواقع ـ كما أشرنا ـ جدل التفاعل والاستجابة أو ما يُسمّى إرادة المواجهة بالفعل، وفي نهاية المطاف، يكون لهذا الفعل مفعول (العتلة) في التجاوز والتغيير. وتكون عظمة الفكر عندئذٍ هي الوجه الآخر لبؤس الواقع، وتصبح القاطرة التي تشدُّه (الواقع) على سكّة التغيير الثوري أو الإصلاحي ـ التحديثي، غير أن أزمة الواقع العربي المعاصر ـ وفق المعطيات الملموسة ـ ليست من هذا النوع الخصب المفتوح، وإنما هي من النوع المغلق الميؤوس؛ أزمة يترجم فيها بؤس الواقع عن نفسه ببؤس في الفكر وتكلّسه، ومن ثمّ فهي أزمة خانقة، أي أزمة لا تنفتح على أيّ تغيير، ولا تبشر ـ على المدى القريب على أقل تقدير ـ ببوادر الانفراج، لأنها تحولت من أزمة في الواقع إلى أزمة في الفكر والواقع معاً. ومن هنا يأتي التردّي والانحطاط.

2 ـ مظاهر الأزمة وتداعياتها:

منذ التقى العرب الغرب على الصعيد الثقافي والحضاري (في العصر الحديث)، وما رافقه من انبهار وصدام، كان الواقع العربي ينبئ بإمكانيّة التغيير (أيّ ما يسمّى مرحلة النهوض أو الانبعاث)، بيد أنه في العقود الأخيرة من القرن العشرين، بدأت الأزمة تتضح معالمها وأسباب تشكلها واستفحالها، فهي ـ كما يبدو ـ من طبيعة سرطانية؛ إذ امتدّت عدوى فقر الواقع وعجزه إلى الفكر والثقافة، ولم يعد هذا الأداء محصوراً في الظواهر المطلوب معالجتها، بل شمل أداة هذا التغيير و(عتلته)، فقد ساد الاعتقاد من الوهلة الأولى أنّ المهزوم الوحيد في حرب حزيران العام 1967، هي المؤسسة العسكرية العربية، ولكن أصابع الاتهام ما لبثت أن وجّهت إلى الأنظمة الحاكمة، حتى طالت الواقع العربي برّمته، وذلك عندما كشف الفكر السياسي إلى أن المؤسسة العسكرية جزء من هذه الأنظمة، بل من نسيج الأمة كلّها، وأن مظاهر التحديث التي حققتها وظفت لحماية الأمن الداخلي للدولة القطرية الواحدة، ما عدا مصر، وسوريّة اللتين صممتا على إعادة بناء الجيش على أسس عصرية حديثة، من أجل تحرير الأرض المحتلة، تحدوهما الإدارة السياسية والشعبية، فضلاً عن توافر الحد الأدنى من التضامن العربي آنذاك؛ إذ تحقّق أكبر إنجاز عسكري ومعنوي في حرب تشرين التحريرية العام 1973، وسجلت في أيامها الأولى ـ على الأقل ـ أن العرب قادرون على المفاجأة الاستراتيجية، وإخفاء الخطّة، وتغذية الجيش بالعناصر الجامعية تلبية لمتطلبات الحرب الحديثة، واستجابت دول عربية للواجب القومي بدخولها في الحرب، وإرسالها قطعات من قواتها إلى الجبهتين الشمالية والجنوبية تجسيداً للتضامن إلى جانب إدخال سلاح النفط.

حيال هذا النهوض بالواقع ومحاولة استثمار ما تحقق من إنجاز ثم تدعيمه بإنجازات أخرى على المستوى السياسي والاقتصادي

البقية.....ص22

السّيميائيات مفهوماً ومصطلحاً

فريد أمعضشو*

تُجْمع كتابات عدة ومعاجم لغوية وسيميائية على أن السيميائيات هي ذلك العلم الذي يُعْنَى بدراسة العلامات. وبهذا عرَّفها فرديناند دوسوسير، وجورج مونان، وكريستيان ميتز، وتزفيتان تودوروف، وجوليان غريماص، وجون دوبوا، ورولان بارث، وآخرون. ويبدو أن تعريف مونان أوْفى هذه التعريفات وأجْودُها؛ إذ يحدد السيميولوجيا بأنها «العلم العام الذي يدرس كل أنساق العلامات (أو الرموز)، التي بفضلها يتحقق التواصُل بين الناس.»1 وانطلاقاً من هذا التعريف، يمكن أن نستخلص أموراً ثلاثة، كالآتي:

* إن السيميولوجيا علم من العلوم، يخضع لضوابط ونواميسَ معينة؛ كما هو شأن العلوم الأخرى. وهذا ما تنص عليه الكثير من التعاريف (سوسير – تودوروف – بارث...). لكن ثمة تعريفات وآراء أخرى تنظر إلى السيميولوجيا بوصْفها منهجاً من المناهج، أو وسيلةً من وسائل البحث. بحيث يشير مونان، مثلاً، في موضع آخرَ إلى أن السيميولوجيا «وسيلة عمل» (Instrument de travail)؛ أي منهج من مناهج البحث. ومن هنا، نقف على شيء من الخلط في كلام مونان؛ فهو تارة يذكر السيميولوجيا على أنها علم عام يدرس العلامات المختلفة، وتارة يذكرها بوصفها منهجا بحْثياً! ونجد هذا الخلط بارزاً عند بعض الدارسين العرب الذين يعرّفون السيميولوجيا بأنها علم أو دراسة (أي منهج) في الآن نفسِه. يقول صاحبا «دليل الناقد الأدبي» مثلاً: «السيميولوجيا (السيميوطيقا)، لدى دارسِيها، تعني علمَ أو دراسةَ العلامات (الإشارات) دراسةً منظّمة منتظِمة.»2 والسيميوطيقا، في نظر شارلز ساندرس بيرس (Ch. S. Peirce) ، نظرية شبه ضرورية أو شكلية للعلامات. إذاً، فنحن أمام ثلاثة آراء؛ رأي يعدّ السيميائيات علماً، وثانٍ يجعلها منهاجاً، وثالثٌ يتخذها نظرية عامّة.

ويبدو أن الدارسين العرب المعاصرين يتعاملون مع السيميائيات بوصفها منهجاً يساعد على فهْم النصوص والأنساق العَلاَمِيّة وتحليلها وتأويلها. وهكذا، فإننا نقرأ بين الحين والآخر دراسات وأبحاثاً يتوسَّل أصحابُها بالسيميائيات – بصفتها منهجاً في المُقارَبة والدراسة، ومن ذلك بعض دراسات محمد مفتاح وعبد الملك مرتاض وسعيد بنكراد, التي تعْمِد إلى تجْريب المنهج السيميائي في تشْريح الظاهرة الأدبية... ومن الدارسين الذين يعدّون السيميائيات منهجاً نجد عبد الرحمن بوعلي الذي يقول في تقديمه لأحد كتب دولودالّ (G. Deledalle) التي ترجمها إلى العربية: «تحتل السيميوطيقا – أو السيميولوجيا – مكانة هامّة ضمن المناهج النقدية. ولئِنْ كان البعضُ يَعدّها مجرد مُوضَة من الموضات، فإن هذا الوصف لم ينقصْ من قيمتها كمنهج علمي وإجرائي في الدراسات الأدبية وتحليل النصوص الأدبية بالدرجة الأولى؛ بل ولم يَزد المشتغلين بها إلا مقاومة لكل نزعة تبسيطية. ولذلك فهي في الاعتبار الصحيح منهجٌ لا يمكن التقليل من أهميته أو التقليص ممّا يمكن أن يفتحه من سُبُل وآفاق جديدة، تُنير مَجاهل التعبير الأدبي والفني»3... إلخ.

* إن السيميولوجيا تدْرُس العلامات وأنساقها، سواء أكانت هذه العلامات لسانية أم غيرَ لسانية. يقول لويس برييطو (Luis J. Prieto) إن السيميولوجيا هي «العلم الذي يبحث في أنظمة العلامات أيّاً كان مصدرها لغويا أم سَنَنياً أم مؤشّرياً.»4

* إن للعلامات أهمية بالغة، تتجلى في كونها تحقق التواصل بين الناس في المجتمع. يقول كولن شيرّي (Colin Cherry): «لا يوجد تواصل من دون نَسَق مكوَّن من دلائل»، ذلك بأن التواصل الإنساني – في جوهره – إنما هو «تبادل الدلائل (أو العلامات) بين بني البشر»؛ كما يقول السيميائي الإيطالي روسّي-لاندي (F. Rossi-Landi) في كتابه (Linguistics and Economics). وبالنظر إلى أهمية التواصل هذه، فقد نشأ في مجال السيميائيات اتجاه يُعنى بالتواصل والإبلاغ، عُرف بـ«سيميولوجيا التواصُل».

يتبدّى لِمَن يتصفّح التعاريف المُعْطاة لمفهوم السيميائيات أنها جميعها تتضمن مصطلح «العلامة» (Le signe) . وهذا مؤشّر واضح على أن العلامات وأنساقها هي الموضوع الرئيس للسيميائيات. وهذا ما أكده جون دوبوا حين قال: «السيميولوجيا وُلدت انطلاقاً من مشروع دي سوسير. وموضوعُها هو دراسة حياة العلامات في كَنَف المجتمع.»5 وقد بيّنتْ جوليا كريستيفا (Julia Kristeva) موضوع السيميائيات حين قالت: «إن دراسة الأنظمة الشفوية وغير الشفوية – ومن ضِمْنها اللغات بما هي أنظمة أو علامات تتمَفْصَل داخل تركيب الاختلافات – هي ما يشكّل موضوع علمٍ أخَذ يتكوّن، ويتعلق الأمر بالسيميوطيقا.»6 ومن هنا، نُدرك موضوع السيميائيات؛ إذ «تهتم بالعلامة من حيث كنْهُها وطبيعتها، وتسعى إلى الكشف عن القوانين المادية والنفسية التي تحْكُمها، وتُتيح إمكانية تمفْصُلها داخل التركيب.»7 تُرى ما العلامة ؟ وما أنواعها؟

من الصعوبة بمكانٍ إعطاءُ تعريف واحد نهائيّ للعلاَمة. ومردُّ ذلك إلى كونها «مفهوماً قاعدياً أو أساساً في جميع علوم اللغة»8، وإلى كونها «كِياناً (Entité) واسعاً جدّاً «من جهة. ومن جهة ثانية، تُعْزى صعوبة تعريف العلامة تعريفاً موحّداً قارّاً إلى «الخلفيات الفكرية التي يُستَنَد إليها» في التعريف؛ وهي خلفيات إبستِمولوجية ونظريّة تختلف من معرِّف إلى آخر. إن هذه الاعتبارات التي تجعل صياغة تعريف واحد للعلامة أمراً عسيراً، لم تمنع الباحثين والنقاد من الاجتهاد في تعريف العلامة. وسنحاول في هذا الصدد تقديم بعض التعريفات التي عُرِّف بها مفهوم العلامة عند الغربيين خاصةً.

إن العلامة (أو الدَّليل)، لدى سوسير، كيان سيكولوجي مجرّد قوامُه عنصران متلازمان (دالّ ومدلول). يقول: «العلامة اللسانية وَحْدة نفسية ذات وجهين... وهذان العنصران مرتبطان ارتباطاً وثيقاً، ويتطلّب أحدُهما الآخر...

محمد إقبال عروي

ونُطْلق على التأليف بين التصور (Concept) والصورة السَّمْعية (Image acoustique) العلامة. ونقترح الاحتفاظ بكلمة «علامة» (Signe) لتعْيين المجموع، وتعويض التصوُّر بـ«المدلول» (Signifié) والصورة السمعية بـ«الدالّ» .(Signifiant)»9 ويَقصد سوسير بالدالّ (أو الصورة السمعية) الانطباع النفسي للصوت، على حين يقصد بالمدلول (أو التصور) التمثيل الذهني للشيء. ويرى سوسير أن العلاقة بين وجْهَيِ العلامة لا تقوم على المشابهة والمناسبة، بل تقوم على الاعْتباط. ومن هنا، فإن مفهوم العلامة عند سوسير مفهوم ضيّق؛ لأنه يجعل علاقة الدال بالمدلول اعتباطية (Arbitraire)، مُسْتثنياً من ذلك ما كان رمزاً (Symbole) أو إشارة (Signal). ثم إن سوسير أهْمَل علاقة العلامة بالواقع، وأوْضَح أن قيمة العلامة إنما تكمُن في علاقتها بما يُجَاورها من العلامات الأخرى.

وإذا كان تعريف سوسير للعلامة تعريفاً تجريدياً، فإن تعريف ميخائيل باختين (Mikhaïl Bakhtine) يرتبط أشدَّ الارتباط بالفعل السّيميائي، لغوياً كان أم غير لغوي؛ إذ يرى أن العلامة تتناسب والإيديولوجيا؛ فحيث توجد العلامة توجد – بالضرورة – الإيديولوجيا. وليس كل علامة إيديولوجية ظلاً للواقع فحسْبُ، وإنما هي – كذلك – قطعة مادّية من هذا الواقع. إن العلامات (أو الدلائل) لا يمكن أن تظهر – حسب باختين – إلا في ميدان تفاعل الأفراد؛ أي في إطار التواصل الاجتماعي. وعليه، فإن وجود العلامات ليس أبداً سوى التجسيد المادي لهذا التواصل. ومن هنا، يخلُص باختين إلى ثلاث قواعد منهجية، هي :

* عدم فصل الإيديولوجيا عن الواقع المادي للعلامة.

* عدم عزل العلامة عن الأشكال المحسوسة للتواصل الاجتماعي.

* عدم عزل التواصل وأشكاله عن أساسهما المادي.

ويعرّف أمبيرطو إيكو (Umberto Eco) العلامة بأنها «حركة (Geste) تستهدف تحقيق التواصل، ونقْل معنى خاص أو حالة شعورية لباثّ

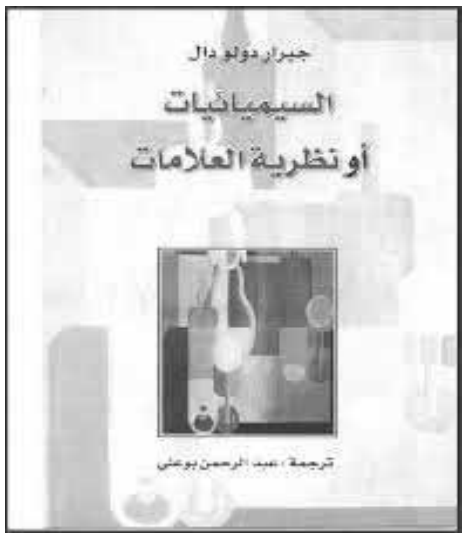

إلى مستقبِل»10. ويميّز إيكو، في كتابه «نظرية السيميوطيقا»، بين الدلائل الطبيعية والدلائل غير القصْدية... إلخ.

وتناول بيرس العلامة في سياق منطقي دقيق يعتمد كثرة التفريعات والتقسيمات؛ ممّا يجعل فهْم مفهومه للعلامة أمراً صعباً. وإذا كانت العلامة عند سوسير ثنائية الطابَع، فإنها – من وجْهة نظر بيرس – «علاقة ثلاثية بين ثلاث علامات فرعية تنتمي على التوالي إلى الأبعاد الثلاثة للممثِّل والموضوع والمؤوَّل»11. ويرى تودوروف ودوكرو في هذا السياق أن «الرقم «ثلاثة» يلعب دورا أساسياً في سيميوطيقا بيرس، مثل الرقم «اثنان» في سيميولوجيا سوسير تماماً»12. إن مفهوم العلامة في السيميوطيقا البيرسية متّسع؛ بحيث يشمل – إلى جانب العلامات اللسانية – العلامات غير اللسانية.

تهتم السيميائيات بدراسة الأنساق الدلالية؛ أي مجموع العلامات التي تنسج فيما بينها شبكة من العلاقات الاختلافية والتعارضية، حتى تضطلع بتأدية وظائف دلالية متميزة بين مرسِل ومتلقٍّ. ويقسم روسي-لاندي هذه الأنساق إلى قسمين كبيرين، هما13:

أ- أنساق دلالية طبيعية: وهي تلك الأنساق التي توجد في الطبيعة. وتتسم بكونها غير مؤسّسية، إلا أن الإنسان وظّفها داخل مملكة العلامات؛ أي إنه أسند إليها دلالات مخصوصة.

ب- أنساق دلالية اجتماعية: وهي تلك التي تمتاز بكونها مؤسسية؛ أي قائمة على نوع من المُواضَعَة الاجتماعية، لأنها من نَتاج عمل الإنسان. وقد قسمها روسي-لاندي إلى صنفين، هما:

* أنساق دلالية اجتماعية لفظية: ويعرّفها الرجل بأنها «تلك الأنساق التي لها لغات ولها خصوصياتها المتنوعة وإعدادات مثل الأنواع السننية. وتقوم هذه الأنواع السَّنَنِيّة على التمْييزات التي يُحْدثها الإنسان في مادة الصوت».

* أنساق دلالية اجتماعية غير لفظية: ويعرّفها بأنها «تلك الأنساق التي لا تَستعمل أنواعاً سَننية قائمة على أصوات متلفَّظٍ بها،

←

ولكنها تستعمل أنواعاً سننية قائمة على أنماط أخرى من الأشياء».

وقد قسّم إيكو الأنساق الدلالية إلى ثمانية عشَر نوعاً بالاستناد إلى معيار ثقافي مَحْض. فالأنساق – في نظره – كلها ثقافية، ترتّب انطلاقاً من أقلها ثقافياً إلى الأشدّ تعقيداً. وأول هذه الأنساق التواصلية ما أسماه إيكو «سيميوطيقا الحيوان» (Zoosémiotique)، وهي تُعْنى بالسلوكات التواصُلية داخل الجماعات غير الإنسانية. في حين تعد الخَطابة (La rhétorique) آخر هذه الأنساق وأكثرها تعقيداً من الناحية الثقافية.

وإذا كان إيكو قد فصّل القول في الأنساق الدلالية وأفاض في تفريعاتها، فإن مدرسة طارتو (Tartu) السوفياتية قد اقتصرت على تقسيم هذه الأنساق إلى قسمين كبيرين، هما:

* أنساق مُنَمْذِجة أوّلية Systèmes modelants primaires))؛وهي الأنساق اللفظية.
* أنساق مُنَمْذِجة ثانوية Systèmes modelants secondaires)): وهي مَبنية على الأنساق الأولى. وتُدْرَج ضمن هذه الأنساق الأساطير والدين والشعر والفنون بعامّةٍ.

ولعل أشْهر التقسيمات ذلك التقسيم الذي قدّمه ميتز، حين قسم السيميوطيقا إلى لفظية (Transverbale) وغير لفظية Non-verbale))14. ونجد الشّيء نفسَه عند برنارد توسّان (Bernard Toussaint) التي قسمت السيميولوجيا إلى لسانية وغير لسانية... وبصورة أجْلَى، فإن العلامات نوعان، هما :

أ- العلامات اللسانية (أو اللفظية): ويقصد بها الكلام المنطوق وعلامات الكتابة أو الحروف (Graphèmes) بأي لغة كانت.

ب- العلامات غير اللسانية (أو غير اللفظية): وهي التي تقوم على أنواع سَننية أخرى مِنْ غير الأصْوات والحُروف. ويمكن أن نقسّمها إلى علاماتٍ عُضْوية مرتبطة بجسم الإنسان (مثل: حركات الجسم، وأوضاع الجسد، والعلامات الشّمّية والسَّمْعية والذوْقية...)، وعلاماتٍ أدَاتية (Instrumentales) تحيل على أشياء خارجة عن العضوية الإنسانية (مثل: الملابس والموسيقى وإشارات المُرور...).

وتُعْطَى الأولوية، عادةً، للعلامات اللسانية التي تقوم على اللغة (Langage) أو الكلام (Parole) . يقول دو سوسير: «اللسان (أي اللغة) عبارة عن نَسَق من العلامات التي تعبّر عن الأفكار. ومن هنا، يمكن مقارنته بالكتابة وبالأحْرُف الأبجدية عند المُصابين بالصمم والخرس، وكذلك مقارنته بالطقوس الرمزية، وبأشكال الآداب وسلوكها، وبالإشارات المتعارَف عليها عند الجنود، وغير ذلك. إلا أن اللسان هو أهمّ هذه الأنساق جميعاً»15. ويعدّ يوري لوتمان (Iouri Lotman) نسقَ اللغة هو النسَق الأوليّ، على حين يجعل كل الأنساق الدلالية غير اللغوية ثانويةً. معنى هذا أن ثمة هَرَمِيةً في الأنساق الدلالية؛ بحيث تفضَّل الأنساق السيميوطيقية اللغوية/ اللسانية على غيرها من الأنساق. وذلك لاعتبارات ثلاثةٍ على الأقلّ؛ أولها أن اللغة هي النسق الدلالي الذي حَظِي بعناية كبرى؛ إذِ احتفل به الدارسون احتفالاً واسعاً في جميع الثقافات، وعالجوه من شتى زواياه (أصوات، صرف، تركيب، دلالة)؛ مما جعله مستوْعِباً – في دلالته – مختلِفَ الأغراض وحاجات الإنسان الاجتماعية. ويكْمُن الاعتبار الثاني في كون المادة الأولية التي تتشكل منها اللغة (وهي الأصوات) عبارة عن أشياء ينتجها جسم الإنسان. فهي – إذاً – داخلَ الجسم وخارجَه. وعليه، فهي ذات طابع شُمولي. ويرتبط الاعتبار الثالث بالسيطرة والتوجيه الإيديولوجيين. ذلك بأن اللغة – من بين كل الأنساق – أداةٌ متميّزة في يد السلطة. وبما أن العمل نوعان: فكري ويدوي، فقد تعارضت الأنساق اللسانية مع غير اللسانية؛ فمثلت الأولى الجانب الفكري، ومثلت الثانية الجانب اليدوي. مؤدَّى هذا أنَّ مَنْ يمتلك اللغة هو من يمتلك الفكر وحق التوجيه والسيادة، ومن يمتلك الأنساق الأخرى هو من لا يمتلك غير واجب التنفيذ... ومهما كان الأمر، فإنه يمكن أن نلْمَس صلاتٍ بين اللغة وسواها من الأنظمة السيميوطيقية. ومن المؤكَّد أن لكلٍّ من النسق اللفظي والنسق غير اللفظي أهميتَه التي لا سبيل إلى إنكارها ألبتّة.

ومن الأمور التي يحْسُن بنا الوقوف عندها، ها هنا، قضية المُصْطَلح المُسَمِّي لمفهوم السيميائيات. فكلمةُ «سيميولوجيا» (Sémiologie) أو «سيميوطيقا» (Sémiotique) مشتقة من الأصل اليونانيSemeîon))؛ كما يشير إلى ذلك سيوسير في محاضراته. ومن الناحية التركيبية، فهي منحوتة من مفردتين؛ أولاهما (Semeîon) التي تعني «علامة»، وثانيتهما (Logos) التي تفيد معنى «العلم» أو «المعرفة».

ولا ريب في أن قضية المصطلح من القضايا الشائكة التي تُطرح في ميدان السيميائيات عموماً؛ إذ ما زال هذا المصطلح يعاني الفوضى والاضطراب. ويعد المصطلح المُسَمِّي لمفهوم السيميائيات واحداً من النَّمُوذَجَات البارزة على هذا الاضطراب؛ إذ نُلْفي كثيراً من الدارسين يَستعملون مصطلحي «السيميوطيقا» و«السيميولوجيا» على سبيل التّرادُف. كما أن أغلب باحِثينا يستخدمون مصطلحات «السيميوطيقا» و«السيميولوجيا» و«السيميائيات» على أنها أسامٍ دالةٌ على معنى واحِد!

ومع تنامي الوعي بأهمية المصطلح، وتزايد الإحساس بضرورة ضبْطه وتوحيده، وجدْنا عدداً من الباحثين ينتبهون إلى الفروق الموجودة بين المصطلحات التي كان يُظَنُّ أنها من قَبيل الترادف. وبناء على هذا الأمر، التفت بعض الدارسين إلى التمييز بين مصطلحي «السيميولوجيا» و«السيميوطيقا»؛ مثلما فعل جون دُوبُوَا. وعَمَد آخرون إلى التفريق بين «السيميوطيقا» و«السيميولوجيا» و«السيميائيات»، ومنهم جوليان غريماص الذي أفرد – في معجمه الشهير الذي ألفه رفقة جوزيف كورتيس – لكلٍّ مصطلح من هذه المصطلحات حيّزاً خاصّا. كما قدّم معجم (Hachette) المَوسُوعي تعاريفَ وتفاريقَ واضحةً بين هذه المصطلحات؛ بحيث عرف «السيميولوجيا» بأنها «علم يدرس العلامات وأنساقها داخل المجتمع»، وحدّد «السيميوطيقا» بأنها «النظرية العامة للعلامات والأنظمة الدلالية اللسانية وغير اللسانية»، وحدّد «السيميائيات» (Sémantique) بأنها «دراسة اللغة من زاوية الدلالة»16. ويعرِّف قاموس «الأوكسفورد» (Oxford) هذا المصطلح بأنه «دراسة معاني الكلمات»17. معنى هذا كلّه أن السيميولوجيا علم، والسيميوطيقا نظرية، والسيميائيات دراسة أو منهج نقدي.

إن الأوربيين يستعملون مصطلح «السيميولوجيا» بتأثيرٍ من دي سوسير الذي وضع هذا المصطلح، واستعمله في محاضراته. يقول: «يمكننا أن نتصوَّر عِلماً يَدْرُس حياة العلامات

داخل الحياة الاجتماعية؛ علْماً سيُشكّل فرْعاً من علم النفس الاجتماعي. ومن ثم، فرعاً من علم النفس العام. وسوف نُطلق على هذا العلم اسم «سيميولوجيا» (من اللفظة الإغريقية «Semeîon» التي تعني «علامة»)»18. أما الأمريكيون، فقد استعملوا مصطلح «السيميوطيقا» بتأثير من بيرس الذي وظفه في مختلف كتاباته حول العلامة. إلا أن المصطلحَيْن معاً، في الواقع، عرفا انتشاراً مُتبادَلاً. ويكفي أن ندْرك أن المُنْتَمين إلى الثقافة الفرنسية لم يُقْصوا تماماً من دائرة اهتمامهم وكتاباتهم مصطلح «السيميوطيقا»، نظراً إلى انتشاره الواسع في الثقافات الأخرى، ولاسيما الأنجلوساكسونية والروسية. كما أن مصطلح «السيميولوجيا» ظل راسخاً في فرنسا وفي غيرها من البلدان اللاتينية19. ويُصرّ رولان بارط (R. Barthes) وأتباعُه على استخدام مصطلح «السيميولوجيا»، ويَنْحُو نَحْوَهم أندريه مارتيني (André Martinet) وتلاميذه من الوظيفيّين. على حين أن مَنْ أطلق عليهم كلود كوكي(J.C. Couquet) اسم «مدرسة باريس» يَستعملون مصطلح «السيميوطيقا» لا غيرُ.

وقد حدد غريماص الفارق بين المصطلحين في اللغة الفرنسية، بأنْ جعل «السيميوطيقا» تُحيل إلى الفروع؛ أي إلى الجانب العَمَلي والأبحاث المُنْجَزة مِنْ حول العلامات اللفظية وغير اللفظية. على حين استعمل «السيميولوجيا» للدلالة على الأصول؛أي على الإطار النَّظَري العامّ لعلم العلامات. وفرَّق آخرون بين المصطلحين على أساس أن «السيميولوجيا» تدرس العلامات غير اللسانية؛ كقانون السير، على حين تدرس «السيميوطيقا» الأنظمة اللسانية؛ كالنصّ الأدبي. ولكن تلك التفرقة بين «السيميولوجيا» و«السيميوطيقا» لم تعُدْ قائمةً، لاسيما بعد أنْ قررتِ «الجمعية العالمية للسيميائيات» – التي تأسَّست عامَ 1974م – تبنّيَ مصطلح «Sémiotique».

ومن الواضح جداً أن الدارسين العرب مختلفون اختلافاً جليّاً في شأن ترجمة هذا المصطلح إلى العربية. فمنهم من يَستعمل مصطلح «السيميائيات»، وهو المصطلح الرائج بين صفوف المغاربيين (حَنّون مبارك – عبد الملك مُرْتاض...)، ومنهم من يُترجم ذلك المصطلح بـ«السيميولوجيا» (محمد نظيف – محمد السرغيني...)، ومنهم من يُعَرِّبُه؛ أي ينقُلُه إلى العربية بلفظِ «سيميوطيقا» (سيزا قاسم...). ويستعمل بعضهم مصطلح «الزُّمُوزية» (أنطوان طعمة...). ويَقترح آخرون – وهم قِلّة – مصطلح «الأعْرَاضِيّة» مُقابِلاً للمصطلح الأجنبي «Sémiologie»، وذلك كما فعل الباحثان يوسف غازي ومجيد النصر في ترجمتهما لـ«دروس» سوسير. ويُتَرْجم عبد القادر قنيني مصطلح «Sémiologie» بـ«علم الدّلالة»، ويترجمُه دارسٌ آخرُ، هو أمين صالح، بـ«علم الإشارات». وثمّة من يَستعمل مصطلح «سيمياء» أو «علم السيمياء»؛ كما في «دليل الناقد الأدبي» لصاحِبَيْه ميجان الرويلي وسعد البازعي. وقد تطرق عبد السلام المسدّي، في إحدى دراساته، إلى المصطلحات الموضوعة أو المقترَحة لمفهوم السيميائيات في النقد العربي الحديث، ودرَسها مبيّناً الكيفية المُتَّبعة في توليدها20. ويُؤْثِر بعض الباحثين لفظ «السيمياء» بوصْفه مصطلَحا عربياً أصيلا وشائعاً في كُتب التراث. يقول عادل فاخوري: «فالعلم نفسُه؛ أي الـSemiotics ، يُترجَم بـ: السيمياء، السيمية، السيميائية، السيميوطيقا، السيميولوجيا والرموزية. والأفضلُ» السيمياء»؛ لأنها كلمة قديمة متعارَفة على وزن عربي خاص بالدلالة على العلم»21. وفي السياق نفسِه، تقول جميلة حيدة: «ولعل ترجمة مصطلح سيميولوجيا أو سيميوطيقا بالسيميائيات أو السيمياء هي الأقْرَب إلى الصَّواب لشُيوعها في الاستعمالات العربية القديمة»22. وهو ما نفضّله نحن، أيضاً، في سائِر كتاباتنا عن السّيميائيات.

(Endnotes)
الهوامش:
* باحث مغربي.
1- Georges Mounin: Introduction à la sémiologie, P. 11.
2 - الرويلي والبازعي: دليل الناقد الأدبي، ط 2002، ص 103.
3 - جيرار دولودال: السيميائيات أو نظرية العلامات، ترجمة: عبد الرحمن بوعلي، ص 21.
4- L.J. Prieto: «La sémiologie», in Encyclopédie de la Pléiade», le Langage, Paris, 1988, P. N.R.F, P. 93.
5- J. Dubois et Autres: Dictionnaire de linguistique, P. 434.
6- J. Kristeva: Le langage cet inconnu, P. 292.
7 - محمد إقبال عروي: السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير، مجلة «عالم الفكر»، مج. 24، ع. 3، ص 191.
8- T. Todorov et O. Ducrot: Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, P. 131.
9- F. De Saussure: Cours de linguistique générale, PP. 98 -99.
10- U. Eco: Sémiotique et philosophie du langage, P. 20.
11 - جيرار دولودال: السيميائيات أو نظرية العلامات، ص 21.
12- Todorov et Ducrot: Dictionnaire encyclopédique..., P114.
13 - مبارك حنون: دروس في السيميائيات، الفصل الثاني (الأنساق الدلالية).
14- Ch. Metz: Essais sémiotiques, P. 12.
15- F. De Saussure: Cours de linguistique générale, P. 33.
16- Dictionnaire Hachette encyclopédique, P. 1479.
17- Oxford Learner's Pocket Dictionary, P. 374.
18- De Saussure: Cours de linguistique générale, P. 33.
19- A.J. Greimas et J. Courté: Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, P. 336.
20 - المسدّي: المصطلح النقدي، المحور 15 المُعَنْوَن بـ«تجريد المُماثلة».
21 - الفاخوري: حول إشكالية السيميولوجيا (السيمياء)، مجلة «عالم الفكر»، م.س، ص 187.
22 - جميلة حيدة: النقد الأدبي المعاصر حول الشعر بالمغرب (أطروحة لنيل الدكتوراه)، مرقونة، ص 288.

القلم في وجه الاحتلال «الإسرائيلي» يعطي المبدع الفلسطيني دفعة للإمام

امتياز المغربي: كلمة اضطهاد قليلة جداً لما يحدث بحق المرأة الفلسطينية

حاورها : بسام الطعان

كاتبة وقاصة فلسطينية، حاصلة على شهادة الاقتصادإدارة وريادة من جامعة القدس، تعمل حالياً مراسلة لمحطة lbc التلفزيونية اللبنانية، شاركت في مؤتمرات وملتقيات عدة خارج فلسطين، لها كتب عديدة وتنشر نتاجها في الكثير من الصحف والمجلات العربية.

* بداية لو سمحت أن تعرّفي القارئ العربي إلى امتياز المغربي، من هي وما تريد؟

** امتياز المغربي، امرأة تعيش واقع الحياة بكل تفاصيلها؛ فهي تبحث عن الأمل والنور، وتسعى إلى الوصول إلى بوابة الحرية الكاملة لها ولكل النساء المحيطات بها، سواء الفلسطينيات أو العربيات، وتعمل باستمرار ليس فقط من أجلها، بل من أجل النساء الأخريات المسلوب حقهن في الحرية أو في الحياة، أنا أؤمن بأنني لن أستطيع التغيير إلا إذا امتلكت الجرأة، وأنا أعمل من أجل ذلك ليلي ونهاري، لأنني عندما أتقدم في فكري وعملي فإنني بلا شك سأتمكن من محاولة التغيير في حياة الأخريات إلى الأفضل، وهذا طموحي الشخصي، لأن جميع النساء هن امتياز، وامتياز هي جميع النساء، سواء المرأة الفلسطينية، أو العربية، أو الأجنبية، المرأة هي المرأة في نظري.

*ما سبب توجهك إلى الكتابة والإبداع؟

** تلمست طريق حريتي من خلال التعبير عن ذاتي في الفعل الكتابي، وسعيت لكي أعبر عما يجيش بداخلي من أعاصير حدثت بفعل المؤثرات التي تحيط بي، وإبداعي لم يكن فقط الموهبة التي أتمتع بها، لكنه الإحساس العالي جداً في نقل كل ما يحيط بي وترجمته، أنا امرأة تؤمن بتحدي الفشل والمستحيل، فدائماً يقولون طريق المائة ميل تبدأ بخطوة واحدة، وأنا بدأت في الخطوة الأولى، وسأستمر بإذن الله.

*لماذا أغلب قصصك تتحدث عن العنف ضد المرأة؟! هل المرأة الفلسطينية مضطهدة إلى حد كبير وممن؟

** كلمة اضطهاد قليلة جداً لما يحدث بحق المرأة الفلسطينية والعربية على حد سواء؛ حتى إن المرأة الأجنبية تعاني أحياناً من المشكلة نفسها، أما المرأة الفلسطينية فتعاني من الاحتلال الإسرائيلي الذي يسلبها بشكل مباشر أو غير مباشر أهم حقوقها في الحرية؛ ومن الناحية المباشرة، فهي تعاني من قمع الاحتلال الإسرائيلي على الحواجز الإسرائيلية المقامة بين المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية، وهي تتعرض للعنف حينما يقتحم جنود الاحتلال بيتها خلال عمليات الاجتياح أو الاعتقال، وهي أيضاً تتعرض للاعتقال سنوات طويلة في سجون الاحتلال، وتتعرض المرأة الفلسطينية إلى الاستشهاد أو الإصابة برصاص الاحتلال «الإسرائيلي»، والمقابر والمستشفيات والسجون الإسرائيلية أكبر دليل على ذلك. ومن ناحية أخرى تعاني المرأة الفلسطينية من ويلات أخرى، وهي أنها تتعرض للمعاملة السيئة أحياناً من قبل العائلة، بسبب ما يتعرض له رجل العائلة على الحواجز الإسرائيلية من ضرب وشتم واضطهاد، ويأتي تفريغ ذلك من قبل الرجل على المرأة التي هي الضلع القاصر الذي يجب أن يتحمل كل ذلك العنف، ولأن المجتمع وموروثه الثقافي، لا يسمحان للمرأة بأن تنال حقوقها المشروعة كاملة إلا قليلاً. وتعاني المرأة من آثار الوضع الاقتصادي. وبالإضافة إلى أن المرأة الفلسطينية تعاني بشكل سلبي من الموروث الثقافي فإنها تعاني من القوانين الفلسطينية التي لا تقف إلى جانب المرأة، وأكبر دليل على ذلك هو تعامل القانون في قضية قتل النساء على خلفية ما يسمى شرف العائلة.

كيف يستطيع المبدع الفلسطيني أن يبدع في ظل الاحتلال الغاشم في فلسطين؟

* كلما زادت الضغوطات زادت الرغبة في فعل الإبداع، وعندما يستخدم القلم في وجه الاحتلال «الإسرائيلي»، فإن ذلك يعطي المبدع الفلسطيني دفعة إلى الإمام، لكي يستمر في البحث والتطوير من أجل مساعدة الآخرين. فالمبدع الفلسطيني يحمل القضية الفلسطينية على كاهله، ولا يتواني عن نقل جزئيات الحقيقة بشكل كامل، وذلك ما يساعد على وجود الإبداع وتحقيقه وصناعته، وإضافة إلى ذلك فإن الإيمان بالشيء يجعل الإنسان متحدياً رغم كل المعيقات؛ فهو صاحب الرسالة وحامل الأمل، والسائر في الطريق المعبدة بالدماء والمخاطر.

*ما هي المقومات التي يجب أن يستخدمها القاص لتحقق قصته النجاح؟

** الإحساس ثم الإحساس، لأنه هو الوحيد القادر على ترجمة مشاعر الآخرين إلى كلمات وحروف، تعمل على التأثير في من يطلع عليها، ويجب أيضاً أن يتحلى القاص بالصبر، والبحث عن تفصيل المكان والشخصيات والرمزية وغيرها، وأن يكون حقيقياً لا خيالياً يعيش في واقع مدمر ويكتب عن شوارع الورد، لا شوارع الدماء، وأن ينقل كل ما تراه عيناه بشكل متكامل، فإن الصورة أو أي عمل فني يعتمد على نقل تفاصيل المكان إلى الشخص الذي يرى أو يستمع أو يطالع أي فن من الفنون.

هناك آراء تقول إن القصة القصيرة في عالمنا العربي تعيش أيامها الأخيرة، وأن فنها بات مهدداً بالانقراض، ما رأيك في ذلك؟

* لا أعتقد ذلك، فنحن في عصر السرعة، والقارئ بحاجه إلى رسالة سريعة جداً، ومع مزاحمة الفضائيات وشبكة الانترنت فإن الأمر بات صعباً على القارئ الفلسطيني والعربي على حد سواء، إضافة إلى أن الأوضاع التي نعيشها، باتت تفرض علينا أموراً عدة منها التعامل مع كل ما يحيطنا بنا بشكل سريع، وغالباً لا حاجه برأي الكثيرين إلى الأمور المطولة، وهذا ما يحدث في الروايات العربية التي تتعرض غالباً للهجر بسبب طبيعة الحياة، والاهتمامات، والمنافسات من وسائل إيصال المعرفة والأدب وهي كثيرة.

على ماذايتوقفنجاحالمبدع؟

* هناك عوامل عدة قد تساعد أو تحد من نجاح المبدع؛ فالبيئة التي تحيط بالمبدع قد تلعب دوراً كبيراً في ذلك، حيث إن العائلة والمجتمع يلعبان دوراً أساسياً في نجاحه، إضافة إلى الوضع المالي الذي يلعب هو الأخر دوراً مهما في إيصال أفكار المبدعين إلى النور، لا أن تبقى حبيسة الأدراج سنوات طويلة، وقد لا تكتشف أحياناً، وأرى أن على المؤسسات التي تهتم بالمبدعين أن تعمل على توفير الجانب المالي لهم، والمساعدة أيضاً في تطوير معارفهم الحياتية والفكرية لكي يكونوا مبدعين حقيقيين، لا أشخاصاً يعيشون في السماء، ويعتقدون أن البشرية جمعاء تعاني من تخلف فادح، وأنهم هم فقط من اكتشفوا العلم والإبداع، ووصلوا إلى حقيقة المعرفة.

*أين تكمن روعة القصة القصيرة أو الرواية الناجحة بكل المقاييس؟

** أنا أشجع القصة أو الرواية التي تناقش الجانب الإنساني، لأنها تنقل بحس عالي ما على الإنسان وما له وما بداخله وما يواجه، وإن كانت الرواية أو القصة لا تحتوي على المعاني الإنسانية، فإنني أجدها عملاً أدبياً لا يحمل رسالة صادقة. يجب أن يتسم العمل الأدبي بالحس الرفيع تجاه نقل المحيط بشخصيات العمل الأدبي؛ ففي فلسطين مثلاً هناك الكثير من القصص والروايات التي تقتحم الشارع الفلسطيني، لكنها لا تحمل حقيقة هذا الشارع، لذلك يتعرض هذا العمل مع مرور الزمن إلى الإهمال، بالإضافة إلى أن مجتمعاتنا العربية تفضل أن تستمع أو تطالع أو تشاهد العمل ذا الطابع الإنساني، لأن مجتمعاتنا العربية بطبعها عاطفية جداً.

*هل لك أسلوب معين تتبعينه في كتاباتك، وما هي اللغة التي تفضلين الكتابة بها؟

** أعشق الكتابة التي تتحدث عن سيرة أناس عاشوا أو ما زالوا يعيشون، أحب أن أروي تفاصيل الحياة والمكان والمشاعر الإنسانية، وأسعى لكي أكون مؤثرة في من حولي من خلال كتاباتي التي تغوص في الجانب الإنساني، وأحب أحياناً أن أكتب باللغة العامية أو المحكية، لأنني أستهدف شريحة معينه من الناس في عمل أدبي خاص بي، وهم الذين أرغب في التأثير فيهم، وألجأ لذلك مثلاً في موضوع قتل الناس على خلفية ما يسمى شرف العائلة، لأنني أخاطب فيهم الجانب الإنساني البحت، وبالرغم من ذلك فإنني أفضل غالباً أن أكتب باللغة العربية الفصحى، لأنني أرغب في أن يفهم جميع من يقرأ لي ما أريده من خلال كتاباتي، وأنا شخصياً لا أفضل كثيراً أن أستخدم المصطلحات التي قد لا توصل فكرتي ورسالتي لقرائي.

*كيف تقوِّمين واقع القصة القصيرة الفلسطينية راهناً، وهل من أسماءأثرت وتؤثر في المشهدالقصصي الفلسطيني؟

* يا للأسف هناك مدخلات كثيرة على الساحة القصصية في المجتمع الفلسطيني، ويعود الأمر بالدرجة الأولى إلى التمويل الذي يضع مقاسات القصة، التي تفتقد غالباً إلى الحس الإنساني أو العربي وتجد بها الفتور، وهي لا تعبر عن شكل المجتمعات الفلسطينية أو العربية، وغير ذلك من سلبيات التمويل، ومن ناحية أخرى فإن المال يمكن صاحبه من فرض نفسه في الساحة الفلسطينية، حتى وإن كان الكاتب جاهلاً، ونعاني أيضاً من ثقافة الأمية التي يصنعها بعض من يعدّون أنفسهم صعاليك، وما يؤثر في القصة أيضاً ثقافة الكأس، حيث إن بعض الكتاب لا يكتبون إلى وهم في حالة اللاوعي الحقيقي، فتخرج أعمالهم عمياء لا تمت إلينا بصلة.

*الحركة الثقافية الفلسطينية كيف تنظرين إليها؟! هل هي نشطة داخلياً؟!، وهل هي غائبة عن النطاق العربي بسبب الاحتلال الإسرائيلي؟

** بالرغم من وجود الاحتلال الإسرائيلي، هناك كتاب أصبحوا يعتادون على تعليق فشلهم وإحباطهم، على شماعة الاحتلال الإسرائيلي، إن الإرادة تصنع كل شيء، ولكن بالرغم من كل ذلك فإن مجموع المتقنفذين الذين يدعون أنهم كتاب ومبدعون، يعملون باستمرار على قمع كل ما هو جديد على الثقافة، ويقمعون الحالة الأدبية والثقافية، حيث أنهم يعدونها حكراً عليهم، وهذا الأمر يعمل على طمس الكثير من الإبداعات الفلسطينية، ولكن وبالرغم من كل ذلك فإن المثقف الفلسطيني الشاب وجد مساحة للتعبير عما يحيط به من خلال استخدام شبكة الانترنت وصناعة البلوجات التي باتت تنقل حالة المثقف، وفكره الذي لم يلقِ ترحيباً في بلده.

امتياز المغربي

*الأدب العربي عموماً، هل له هموم، ما هي؟

** عن الهموم حدث ولا حرج، ومنها أن الأدب العربي يعاني من مدخلات جديدة عليه، وعلى شكله، وهناك محاولات لتغيير شكل الأدب العربي وتحويله إلى أدب مبتذل ورخيص، يناقش فقط مواضيع الإثارة والجنس، وكأن المجتمعات العربية لا تعاني إلا من الجنس، وليست بحاجة إلى الإرشاد أو التثقيف والتوعية وتذوق فنون الأدب، ولكن وبالرغم من كل ذلك هناك أقلام ما زالت تناضل في وجه المتغيرات السلبية.

*يواجه الأدب بأشكاله المألوفة.. الرواية والقصة والشعر، تحدياً كبيراً، هذاالتحدي يتجسد بأشكال التعبير المرئي عبر التلفاز والحاسوب.. برأيك ما هو مستقبل هذا الصراع؟

* نعم صحيح, الانترنت والفضائيات تستحوذ على الكثير من اهتمامات الناس، فقد بدأ عدد المهتمين بالقراءة والمتابعة لأشكال الأدب يقل، وذلك لأننا أصبحنا في عصر كل ما فيه يتسم بالسرعة، لكن وبالرغم من كل ذلك، مازلنا نحن جمهور المثقفين الحقيقيين نعشق رائحة الكتاب وما فيه من عمل أدبي.

*هل يستطيع الأدب أن يحرك الجماهير، ويسبر أغوار الجرح العربي؟

** بحسب تجربتي البسيطة التي عانيت فيها الأمرّين بسبب مقالاتي والقصص التي أكتبها، فإننا نستطيع أن نعمل على التغيير من خلال القلم الحقيقي الذي لا يدفع له أي ثمن،

←

ومخاطبة الوجدان البشري، وبذلك سنصل إلى مرحلة التأثير المباشر في قضايانا في مجتمعاتنا العربية.

*هناك جهات كثيرة في الغرب، تشن على العرب والمسلمين العديد من الهجمات.. برأيك كيف على المثقف العربي أن يقف في وجه هذه الهجمات الحاقدة، وهل المثقف وحده قادر على ذلك؟

** هنا أود أن أسال إذا كان المثقف لا يحمل أي رسالة، فلماذا هو مثقف فليسترح جانباً، و ليترك لأصحاب الرسالات الطريق سهلة لكي يحققوا رسالاتهم تجاه البشرية.

*هل تقبلين النقد سواء أكان مكتوباً أو مسموعاً، هل تلتزمين بآراء النقاد مهما كانت؟! وكيف تقوِّمين الحركة النقدية الفلسطينية أولاً، والعربية ثانيا؟

** إذا كنت لا أعمل فلا يتم انتقادي، وانتقادي يعني أنني موجودة بالرغم من كل المعيقات التي تحيط بي، أما بخصوص الحركة النقدية، فإنني أشعر بأن التملق يعتريها. هناك الكثير من المتسلقين الذي يسعون إلى مصالحهم وإلى شهرتهم من خلال مدح ذاك أو توبيخه، لكنني أؤمن بفصاحة القارئ العربي الذي هو أكبر ناقد حقيقي على هذه الأرض.

*هل شخصيات أعمالك هم عرب فقط أم يهود أيضاً؟

** نحن أناس نعيش تحت وطأة الاحتلال «الإسرائيلي»، وإذا أردنا الحديث عما نعانيه فإننا سنتحدث طبعاً عن الاحتلال واليهود، وهذا مفروض علينا بسبب الحالة الخاصة التي تعيشها فلسطين.

*ماذا تفيد الكتابة في عالمنا العربي، ماذا تفيد في ظل القتل المجاني، والحصار الظالم؟

** الإيصال والتواصل الحقيقي، إذا لم نوثق الحقائق نحن فمن سيوثقها نحن نحمي كل ما نعيشه من التزييف، ونحن شعب نأمل كباقي الشعوب التي تحررت أن نتحرر في يوم.

*هل الأعمال التي تبدعين فيها تحمل شيئاً منك، ذاتك، ملامحك، صورتك؟

** نعم تحمل ألمي، وضعفي، وشجاعتي، وجرأتي، وكل ما في داخلي من أحاسيس تجاه المحيط، وأنا أحاول من خلال كتاباتي أن أسجل تحدياً لكل من وقفوا في طريق إعاقتي عن التقدم في إبداعي، ولكن قد تستغربون أن أول من عمل على إعاقتي ليس الاحتلال «الإسرائيلي»؛ بل كانت المرأة.

*هل من دول عربية تقدم الدعم للثقافة الفلسطينية وللمبدع الفلسطيني؟

** هناك دول عربية كثيرة تقدم الدعم للثقافة الفلسطينية، وهذا عمل كبير من جانبها، حيث أنها تساعد على إيجاد نجوم إبداعية فلسطينية وعربية في سماء الوطن العربي قد يصلون إلى العالمية.

*كإنسانة وأديبة، هل ينتابك حزن ما، ألم ما، ومن ماذا؟

** سؤال صعب جداً، جداً، أنا امرأة وحالي كحال كل النساء الفلسطينيات والعربيات، أنشد الحرية والإبداع والتأثير، وأحب أن أحيا حياة طبيعية جميلة، لكي أتمكن من كتابة ما لم أكتب، فأنا إنسانة تعشق الزهور والحرية، والإبداع.

العربية لغة العلم: من هنا البداية

فؤاد بوعلي

كثيرة هي المقالات والمصنفات المدبجة لوصف قدرات اللغة العربية الذاتية وإمكاناتها الهائلة في التعبير عن عصر الحداثة والتنمية، وعديدة هي المحاولات التي يقوم بها بعض الباحثين لتمثل الحالة الإبداعية للإنسان العربي وقدراته العلمية التي جعلته يتمثل علوم الكون المختلفة ويقدمها نبراسا لشعوب العالم القديم، قبل البحث في إمكانية نقلها إلى عربي اليوم. لكن قلة من الأبحاث والدراسات من انتقلت من القول إلى الفعل، وحاولت تمثل قدرات اللغة العربية ومكنوناتها المضمرة في معانيها ومصطلحاتها ونظامها الصرفي والتركيبي بعيداً عن تقديم الوصفات الجاهزة، وعملت من خلال المعالجة الميدانية على سبر أغوار سحر العربية وإمكانياتها التعبيرية المختلفة.

فقد احتضنت رحاب كلية العلوم والتقنيات بجامعة عبد المالك السعدي بطنجة حدثا تاريخياً بامتياز، يؤكد أن النهوض بالعربية ليس مسألة سياسية أو مدنية فحسب، بل هي قبل كل ذلك قضية إرادات ومبادرات ذاتية وجماعية. فقد قدر لي خلال الأسبوع المنصرم مناقشة أطروحتين لنيل الدكتوراه في علم الحيوان في إطار وحدة البحث والتكوين «تاريخ العلوم عند العرب والأفكار العلمية» المعتمدة بجامعة عبد المالك السعدي. وقد توقفت الأطروحتان عند: مصطلحات علم الحيوان عند العرب من خلال مؤلفات الأصمعي، ومصطلحات خلق الإنسان من خلال «المخصص» لابن سيده. وأهمية الحدث نابعة من أمرين متلازمين:

1 ـ أنها، على حد علمي، المرة الأولى التي تناقش فيها أطروحة في كلية العلوم بالمغرب باللغة العربية؛ فبعد توقف عملية التعريب ورهن التعليم المغربي بازدواجية مقيتة قضت على إمكانية الإبداع العلمي في ميادين المعرفة الدقيقة، منذ إقرار لجنة إصلاح التعليم سنة 1958م أن تدريس العلوم يتم باللغة الفرنسية، لدرجة التشكيك في قدرة العربية الإجرائية على توصيل العلم والمعرفة، أتت هذه المبادرة من عروس الشمال، لتثبت أن الأمر يرتبط في الجوهر بوجود إرادة فاعلة قادرة على تفعيل المبادئ النظرية والشعارات الكبرى. وقد تمثل الأمر في مجموعة من الأساتذة المؤطرين والطلبة الباحثين، الذين جمعهم إيمانهم العميق بفكرة الانتماء للهوية الإسلامية وقدرة العربية على مواكبة عالم التنمية والتقنية، وبالرغم من أن تكوينهم العلمي كان منذ البدء بلغة أجنبية وفي دول أجنبية، فإن إصرارهم قد دفعهم إلى النبش في التراث العلمي العربي مما كون لديهم رصيداً من الخبرات على الصعيدين الوطني والدولي .

2 ـ المواضيع المعتمدة هي جزء من مشروع ضخم يستهدف إنشاء معجم تاريخي لعلم الحيوان عند العرب في أفق إنشاء معجم عصري لمصطلحاته والذي سيستمد مادته الأولية من المعاجم العلمية الحديثة ومنتجات البحث المعجمي والعلمي القديم. والغاية الثاوية التي توقف عندها الباحثون في معالجتهم لنصوص الجاحظ والأصمعي وابن سيده أن المصطلح العلمي العربي يتمتع، كما تجلى في صياغاته المختلفة، بالعديد من المميزات التي تؤهله للاستعمال العلمي، وإغناء المعجم العلمي الحديث بمصطلحات دقيقة، ويجنبنا مخاطر الاقتراض اللغوي والترجمات الحرفية التي أصابت الفضاء العلمي بعقم اشتقاقي مقيت. كما تدفع عن الإبداعات التراثية تهمة القصور والقدم. هل هو حلم؟

قد يبدو تسويغ قابلية اللغة العربية لاستيعاب وصف آلة أو البحث عن أسماء لمخترعات يعطيها القابلية لتكون لغة للعلم تسويغ ساذجاً ومبسطاً، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن العرب ليسوا في وضع إبداعي للعلم، بل في حالة استهلاكية تفترض متابعة ما يستجد للبحث عن مرادفاته بصورة دائمة ومستمرة. لكن مشروع مصطلحات علم الحيوان يؤسس أطروحته على أن في التراث العربي مخزوناً علمياً لم يستثمر نهائيا؛ حيث توجه الباحثون والعلماء بدل ذلك النبش في نصوص الرسائل والقواميس والمعاجم نحو الاقتراض والترجمة الحرفية. وفي تصنيف إجمالي توصل الباحثون إلى أن المصطلحات المعتبرة في الموضوع تتوزع على ثلاثة أصناف: مصطلحات حافظت على معناها الأصلي بسبب كثرة تداولها مثل الحمل والجمجمة والجبين، ومصطلحات حافظت على تركيبها لكن تغيرت معانيها مثل العضلة التي تعني عند المعجميين القدامى عضلة العضد أو بطن الساق، في حين تعني في المعجم العلمي الحديث كل نسيج ليف يتميز بالانقباض، ويؤمن حركة الكائن يقابله بالفرنسية: muscle، وصنف ثالث يتعلق بمصطلحات ترجمت ترجمة حرفية، فأغفلت بذلك المصطلحات المقابلة لها والموجودة أصلاً في التراث العربي. ولهذا النوع نماذج كثيرة؛ بل قد نزعم بأنه الأصل المحرك للمشروع بأكمله من نحو (الحولاء) التي تعني عند ابن سيده «السائل المحيط بالجنين» لكن المعاجم العربية الحديثة تطلق عليه (السائل السلوي) وهو ترجمة حرفية لـliquide amniotique.

مدخل المعرفة مصطلحاتها. إن أزمة المصطلح العلمي العربي واقع لا يمكن القفز عليه، لعوامل عديدة؛ أهمها حالة الهوان والضعف التي يعيشها العلم العربي نفسه. لكن الاعتزاز بالتراث القديم يجعلنا نتوصل إلى الإجابة عن سؤال عده أصحاب المشروع محورياً هو: هل تراثنا قادر على مدنا باصطلاحات تفيد مجال العلوم الدقيقة؟ إن ثروة اللغة العربية من المصطلحات العلمية لها خصوصية الماضي والحاضر، كانت مفرداتها وعاءً لمصطلحات مختلف العلوم، ابتدع أبناؤها من علومها ما كان فريداً في زمانه، ومن فلسفتها ما كشف عن مرونة اشتقاقاتها وطاقاتها على التعريب والتفاعل مع اللغات الأخرى. لذا فقد أثبتت البحوث المشار إليها دقة العربية في التعبير، وقدرتها على وصف الحالات المختلفة، وإمكانيات متعددة للتداول تغنينا عن مشاكل التعريب والترجمة الحرفية.

وجملة القول، تثبت هذه المبادرة أن النهوض باللغة العربية لا يتم بتكرار الشعارات عن قيمتها وقدراتها اللامحدودة؛ بل بمشاريع علمية حقيقية تستطيع نقل لغة الضاد من سجون الوجدان والخطب الرنانة إلى ميدان المختبر والتحليل التقني؛ لذا فمبادرة وحدة البحث في طنجة تحتاج منا إلى الإشادة بوصفها مدخل البداية إلى سيادة اللغة العربية على كل قطاعات المجتمع، أي في التعليم بسائر مراحله وتخصصاته، وفي مراكز البحث العلمي الإنسانية والدقيقة.

خط عربي

نظرة في مسرح هنريك إبسن.. «عدو الشعب» أنموذجاً

فؤاد عبد المطلب

كان هنريك إبسن أول كاتب مسرحي رئيسي يعالج مآسي الناس العاديين الذين يعيشون ظروفاً اعتيادية، مستخدماً في ذلك لغة الحياة اليومية في حوارات الشخصيات، بالمقارنة مع المسرحيات المأساوية السابقة التي اختصت بحيوات الملوك وشؤونهم وبلغة شعرية منمقة عالية. أما موضوعات المسرحيات الضاحكة أو الهزلية فكانت تدور حول أبناء الطبقات الوسطى أو الدنيا. ما قام به إبسن هو تنقية حبكات مسرحياته من العنصر الضاحك إلى حد كبير، مبتعداً عن ممارسات المسرح السابق له الذي استند إلى تقنيات اصطناعية: فمسرحياته تخلو من المناجاة أو أحاديث تُسمع مصادفة أو اتفاقاً أو استرقاق السمع، أو رسائل معتَرَضة أو ارتداء أقنعة. كما ضغط عموماً عدد فصول المسرحية الكلاسيكية من خمسة إلى ثلاثة أو أربعة فصول. يُعد نثره المسرحي غالباً من أفضل ما كتب في ميدان النثر الإبداعي. فكثيراً ما جعل شخصياته تتحدث بصورة طبيعية، لكن مختلفة بعضها عن بعض؛ مثلها كمثل شخصيات الروايات العظيمة. كما يتجلى عمقها الإنساني وتعقيدها النفسي من خلال تلك الأحاديث التي تتجرد من الزيادات في الكلام، وتقتصد في تعابيرها عن الأفكار. وقد أثر ذلك على نحو واضح في طريقة التمثيل وجَعَلها أكثر واقعية وبعداً عن الرومانسية والمواقف المصطنعة. كما تتطلب عمق الشخصيات وتعقيدها من الممثلين التأني والتحليل أكثر، والغوص في أعماق الشخصيات وحساسيتها، وقد جعلت واقعيته الممثلين يستندون إلى معرفتهم الحياتية في أثناء تمثيلهم للشخصيات أكثر من قيامهم بالاستحواذ على إعجاب الجمهور من خلال أقوال بالغة التكلف، أو دموع وعواطف مفتعلة، أو انفعالات صارخة، أو غيرها من المهارات الفنية.

كُتبت مسرحيات إبسن بداية باللغة النرويجية، ثم أخذت ترجماتها إلى اللغات الأوروبية تظهر تباعاً. وقد أسهمت الترجمات الإنكليزية والدراسات النقدية المسرحية المكتوبة بالإنكليزية في انتشار إبسن في العالم الآنجلو ـ أمريكي وفي بلدان كثيرة. ويمكن النظر في ثبت مراجع أية دراسة حول مسرحيات إبسن، كي تُظهر حجم الاحتفاء النقدي بمسرحياته حتى في أيامنا هذه، كما يمكننا أيضاً النظر في آراء نقاده من المعاصرين له ممن أبدوا آراءهم حول مسرحية (عدو الشعب).

بعد مسرحية (بيت الدمية) عام (1879) ومسرحية (الأشباح) عام (1881) اللتين هاجم فيهما قيم المجتمع البرجوازي المحترم المحافظ وعلى رأسها النفاق والأنانية والكذب، تابع إبسن نقده لهذا المجتمع في مسرحية (عدو الشعب) عام (1882)، مؤكداً أن الأغلبية عادة هي على خطأ، وأن الأقلية دائماً على صواب، عبر رفضه المطلق للإصلاح المنفرد واهتمامه بموضوع الحرية: حرية الفرد الكاملة في أن يكون صادقاً مع نفسه، وأن يقول الحقيقة كاملة. وقد كانت مهمته توضيح ذلك عبر تصويره للشخصيات الإنسانية، وفي طليعة هذه الشخصيات شخصية الدكتور ستوكمان. على ما يبدو أن إبسن قد وجد عزاءً في شخصية هذا المتمرد الوحيد؛ فقد صرح مرة في رسالة إلى جورج براندز أن: (الأغلبية، الجمهور، الكتلة لا يمكنها إدراكه، لذلك لا يمكنه أن يحصل على الأغلبية إلى جانبه... في النقطة التي أقف عندها حين أكتب أياً من كتبي، تقف الآن الأغلبية الساحقة في معظمها، لكنني أنا نفسي الآن لا أقف عند هذه النقطة، أنا في مكان آخر، آمل، أن يكون متقدماً أكثر. صحيح أن الدكتور ستوكمان ينتهي إلى هزيمة شنيعة، لكنه يرفض أن ينسحب من المعركة مع ما يسمى (رأي الجمهور) أو (الغالبية الساحقة)، أو ما شابه ذلك من التعابير الشيطانية... فأنا أريد أن أسوق إلى أذهان أولئك الغوغاء أن الليبراليين هم أخبث الأعداء الذين ينبغي على الناس الأحرار أن يواجهونهم، وأن البرامج الحزبية تقصم ظهور الشباب والحقائق الحية جميعها، إن الاعتبارات العملية تقلب العدالة والأخلاق رأساً على عقب، بحيث يصبح العيش في الحياة ببساطة لا يطاق. يخسر الدكتور ستوكمان المعركة من أجل ينابيع المياه، لكن معركته ضد الكذب أو النفاق تستمر.

كتب إدموند غوس عام 1882 معلقاً على الشخصية الرئيسة في المسرحية:

إن بطل مسرحية (عدو الشعب) هو على نحو ما هنريك إبسن نفسه في الحياة العملية، هو ناقد مكروه؛ لأنه يقول الحقيقة الواضحة لآذان لا ترغب في سماعها... فيتهم بصوت عال بأنه عدو للشعب، ويُقاطع، ويُرجم بالحجارة، ويُقاد خارج البلد، لمجرد قوله بصوت مرتفع ما يقتنع كل شخص بداخله على أنه الحقيقة.

الرمز واضح وشفاف، والمسرحية هي حقيقة قطعة من الجدال الشخصي العنيف. والقصة يمكن أن تكون موضوعاً لرواية ماتعة، لذلك هي تتحمل المعالجة المسرحية بصعوبة. على أية حال، يبقى هذا العمل إلى حد بعيد صحيح مسرحياً من حيث أنه لا علاقة شخصية بين الدكتور ستوكمان وإبسن نفسه، أو حتى أنه قد لا يكون متحدثاً باسم إبسن وأفكاره، إنما هو تمثيل لأنموذج أو لمزاج معين، لكنه من النوع الواضح والمنسجم تماماً. إنه متطرف وبصورة حادة مع أن التطرف هو أمر مكروه له؛ مثله كمثل أي شكل من أشكال الخداع السياسي. وقواعد السلوك الوحيدة التي يعترف بها هي الصدق الكامل ومهما كان الثمن، والاعتماد على الذات الفردية مهما تعرضت للأذى. وطبقاً لهذا الكلام، بينما يُجمع النقد المسرحي الاسكندينافي على الاعتقاد أن مسرحية (عدو الشعب) هي ليست في طليعة الأعمال المسرحية التي كتبها إبسن، فإني لا أستطيع إلا أن أقول إن شخصية الدكتور ستوكمان هي من أكثر الشخصيات أصالة، وبالنسبة إلي من أكثر الشخصيات تميزاً، ضمن إبداعات إبسن المسرحية، ثمة تشابهات كثيرة بينه وبين الكونت ليو تولستوي، سواءً كان إبسن يعرف شيئاً أم لا عن الحياة الخاصة أو عن شخصية الأديب الروسي الكبير حتى العام 1882 لا أدري.

في مسرحية (عدو الشعب) بدت الروح الطبيعية عند الشاعر، وكأنها تعزز من موجة المثالية الغاضبة العالية لديه. لقد صرح بأن الأكثرية مُدَجنة وجبانة ومنافقة، وهذا صحيح، لكنه وعد بأن الرجل الخير، حتى وإن كان وحيداً، يجد في مبدئه مكافأة له، ويشعر بالانتصار مثله مثل أبناء النور... .

كما أبدى ويليام آرتشر رأيه حول المسرحية قائلاً:

لقد حاول الشاعر في هذه المسرحية بعناء تجنب أي تأثير للإثارة المسرحية، بيد أن الفكرة برمتها وكثير من المشاهد المنفردة مؤثرة بقوة، لكن الحالات المثيرة في مسرحيات مثل (أعمدة المجتمع) و (بيت الدمية) هي غائبة كلياً. ففي الأوضاع المضحكة الكثيرة، كما في حالات أخرى، تشبه هذه المسرحية مسرحية (رابطة الشباب) أكثر من المسرحيات التي كتبها سابقاً. فحواراتها تامة ـ لا يوجد كلمة واحدة تلقى جزافاً، ولا يوجد كلام متألق بصورة غير مناسبة، ولا يوجد كلمة واحدة مملة. وكل شخصية متفردة على نحو واضح، لذلك ستأخذ شخصية الدكتور ستوكمان مكانها اللائق يوماً ما ضمن مجموع الشخصيات التي أبدعها إبسن والتي من الممكن أن نتعاطف معها. ليس هناك في بقية مسرحياته مثل التقنية الدقيقة التي استخدمها في هذه المسرحية، حيث تلتحم الشخصية والحدث بصورة أكثر جدية. لعل بعضنا يرغب أن يعود الشاعر إلى طريقته المسرحية القديمة، ويقدم لنا مسرحيات خيالية رائعة شعراً، لكنه طالما يقدم لنا مسرحيات مثل (عدو الشعب)، لا يوجد سبب وجيه يجعلنا نأسف لاستخدامه النثر والواقعية... .

وقد كتب إي . أ . بوغان عام 1905 حول إبسن ومسرحيته:

من المعروف أن إبسن كتب (عدو الشعب) كجواب على النقد العدائي الذي وُجه إلى مسرحية (الأشباح)، وليس على نحو أولي كمساهمة في نقاش يدور حول الأخلاق الاجتماعية والخاصة بأعمال البلدية... .

بالنسبة إلى محب المسرح العادي ليست المشكلات الاجتماعية المطروحة في هذه المسرحية المفعمة بالحركة والمشاعر هي النقاط المهمة. إن هدف المسرحيات كلها هو السؤال الآتي: هل نجح الكاتب المسرحي في الحفاظ على تسلسل انتباه النظارة وتحريك مشاعرهم؟ قد توافق الدكتور ستوكمان على أن الفردية هي الموقف المطلوب أن يتخذه الرجل القوي، وأن الأقلية هي دائماً على صواب، أو أن الأغلبية الساحقة، حسب قول كارليل، هي بالتأكيد على خطأ، وقد تناقش مسألة إذا كان الأول للإنسان هو تجاه عائلته أم تجاه العائلة الأكبر لمجتمعه الذي يعيش فيه، لكن حيوية هذه المسرحية لا تكمن في الأفكار التي تعبر عنها أو تقترحها الكراسة الدينية أو السياسية لا تشكل مسرحاً.

إني أترك الإجابة عن هذه الأسئلة كلها إلى أقلام أكثر قدرة من قلمي. وجل ما أبغي معالجته هنا هو كثافة المسرحية التي مكنت إبسن من بنائها من المادة المتوافرة لديه. أعتقد هنا أن الجميع يوافق على أن المسرحية قوية، وأنها تحرك الكثير على نحو أصيل، إن مشهد رجل قوي وجريء يتحدى جيشاً من الجبناء أخلاقياً لابد أن يكون محركاً دائماً. وتمتاز هذه المسرحية بأنه ليس فيها وعظ. فالشخصيات هي شخصيات في مسرحية، وليست تجريدات فحسب أو دمى تتحرك في كراسة الكاتب المسرحي الصغيرة... .

وقد كتب الممثل والمخرج المسرحي الشهير كونستنتين ستانسلافسكي (1863ـ1938) والمؤسس المشارك لمسرح موسكو الفني، عن مسرحية (عدو الشعب) في مقال بعنوان (نظام الفن الخلاق وطرائقه) نشره ديفيد ماغارشاك في كتاب حرره ونشره تحت عنوان: (ستانسلافسكي حول فن المسرح) عام 1950.

عندما كنت أعمل على دور ستوكمان، كان حب ستوكمان وتوقه للحقيقة الأمر الذي أثار اهتمامي بالمسرحية وبدوري فيها. لقد كان الحدس، والغريزة، ما جعلاني أفهم الطبيعة الداخلية لشخصية إبسن، بكل خصوصياتها، وطفولتها، وقصر نظرها؛ فهي التي ألقت الضوء على العمى الداخلي عند ستوكمان حيال الشرور الإنسانية،

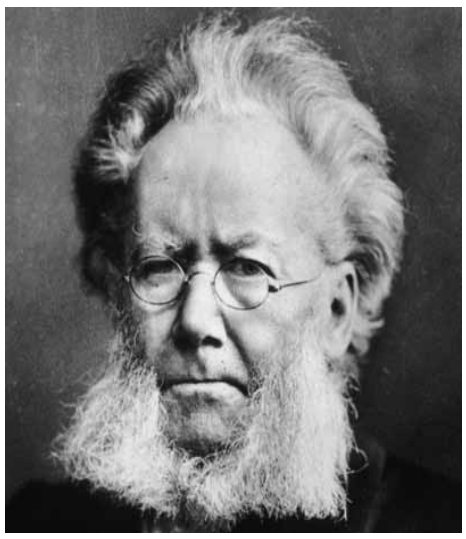

هنريك إبسن

وعلى موقفه الرفاقي تجاه زوجته وأطفاله، وعلى حبوره وحيويته. لقد وقعت تحت سحر شخصية ستوكمان، الذي يجعل كل أولئك الذي يحتكون به ويتعرفون إليه أناساً أفضل وأنقى، ويظهر الجوانب الأفضل من طبائعهم أثناء حضوره.

لقد كان حدسي الذي أوحى لي بمظهر ستوكمان الخارجي، الذي تكون بصورة طبيعية من عمق هذا الإنسان: فقد اتحد جسد الواحد وروحه بالآخر عضوياً، ستوكمان وستانسلافسكي. وبمجرد أن نظرت في أفكار ستوكمان وهمومه، تبدى أمامي قصر نظره من تلقاء نفسه، رأيت انحناءة جسمه نحو الأمام ومشيته السريعة. الأصبعان الأول والثاني مشدودان إلى الأمام عفوياً وكأنهما يرميان للكبس على مشاعري وكلماتي وأفكاري، لتنطلق باتجاه روح ذلك الرجل نفسه الذي كنت أتحدث إليه.

وقد كتب هارولد كلارمان في كتابه (إبسن) (ماكمبلان، 1977) حول شخصية ستوكمان في خاتمة نقاشه للمسرحية:

إن هزيمة الشخصيات العظيمة مؤقتة؛ فهم يحرزون النصر بعد سنين من النضال الشاق. ويبقى ستوكمان على الرغم من ذلك متفائلاً حتى النهاية. إنهم الشباب كما يتصورهم هو، عبر أطفاله وخصوصاً ابنته التي تتلفظ بالوقائع الحقيقية بترا، والتي تقول، (في البيت يقولون لنا لا تتكلموا اضبطوا ألسنتكم، وفي المدرسة نعلم الأولاد الكذب)، إنها هي التي تربح اللحظة (ربما لحظة واحدة) ولكن بالنسبة إلى عائلة ستوكمان فهي تربح العالم كله.

لقد كتب مرة الكاتب الكلاسيكي الهادئ بول فاليري: إن المتطرفين يعطون العالم قيماً، والناس العاديون يجعلونه يستمر، أما الثوريون فيجعلونه جديراً بالعيش، والمعتدلون يجعلونه مستقراً. إن ستوكمان متطرف، أو أنه يصبح كذلك مثل إبسن كما يظهر في هذه المسرحية. بيد أن هذا العالم يجب أن يحتوي على متطرفين إذا كان على مجتمعاتنا ألا تفسد أو تنوي إلى التسطح أو العدم.

لقد قيل إن إبسن بعد مسرحية (عدو الشعب) بدأ بالتراجع في حربه الاجتماعية. ولكن من باستطاعته أن يؤكد ذلك تماماً. فردّاً على هذا الاتهام بأنه سريعاً ما انسحب من مواقفه التي اتخذها سابقاً، يبدو كما لو أنه قد أطلق تصريحه مثل والت ويتمان (هل أناقض بذلك نفسي؟ حسناً، أنا أناقض نفسي!).

جواد الحطاب في بروفايل للريح .. رسم جانبي للمطر:

صيّادُ لآلىء الشعر .. يوقظ نصب الحريّة من سباته

منذر عبد الحر

كمن يبحث عن لؤلؤ في أكوام صدف، على شاطئ منسوج من حلم، يتجوّل وحده، مصطحبًا كشّافاً سريّاً مصنوعاً من طفولةٍ، ولهفة حب وفرح، وانسياب موج يتكسر على قوارب تستعدّ لفجرٍ نافرٍ من لحظةٍ ممهورةٍ بموّال بصريّ أطلقه عاشق، شقّ هديل الصباح، ومضى بين النخيل، يبحث عن نجمة تركها المساء، في ليلةٍ شهقت بالأغنيات ..هكذا هو، جواد الحطاب، جُبِلَ من هذه الخلطة، وخرج عن المألوف في كلّ شيء، حتى غدا محلقًا بأجنحة الروح، لا يقف على دكة زمنٍ معينةٍ، ولا يخشى إفراطه بالحب والشعر والدهشة، لذلك حين يطلّ من نافذة جديدة، فعلينا جميعًا أن نصمت وننتبه جيّدا له .من اللحظة الأولى في الشروع بالتجربة، إيذاناً بالتحليق، يفتح الحطاب أفقاً، يضع له محددات - تنتمي إلى الحلم - كي يفصح عن نسق شعريّ، يوهمنا، بحبّ وحرفيّةٍ عاليةٍ وموهبةٍ نادرةٍ، أنه يغامر، لينطلق من أثرٍ معلومٍ، وتجربةٍ لفحلٍ شعريّ هو بلند الحنّدري، لم تحققْ مبتغاها، وهذا المدخل، وضع تحته كل استثناءات النحت اللغوي، والانفلات من التحديد، ليعطي درساً فنيا وتعبيريا في الشعر الحديث، وخاصة للذين أدمنوا اللغو وادعاء الحداثة والتحديث، والتجريب والغرائبيّة، فكان الإيضاح الذي وشى بإناء الشعر هو المدخل.

1

ولعل الصرخة الأولى كانت دالاً مهماً على شروع الحطاب بتجربته، العلامة الفارقة، الجديدة في الشعرية العراقية، وربما، رغم أنني لم أطّلع على النموذج الموازي للوحات جواد سليم التي قدمها، في حينها الشاعر الكبير بلند الحيدري، إلا أنني أتوقع أن انتظام تعبيرات الحيدري مع ضربات سليم، كانت تعيقها الغنائية، وارتباط الحيدري بالتفعيلة التي جعلته يصنع نصًا موازيًا، لا يحاكي الصورة بحرية كاملة، وهذا الرأي ربطته بربما، فأنا لم أطّلع كما أسلفتُ على النموذج الذي قدمه بلند الحيدري، أما جواد الحطاب، فقد تحرّر من هذا النسق، وأعطى لذاته حرية الغور، في عوالم الجدارية، وهذه الحرية جاءت مضاعفة، إذا افترضنا أن هناك معيارا لقياس الحرية، وسبب مضاعفتها لدى الحطاب يكمن في تجربة لم تنجح، ورؤى تخمرت وتجددت مدعومة بالوعي والموهبة والنضج الفني العالي، لذلك حين يفصح الشاعر بالقول:هذه المرة ..أنا (جواد الحطاب) قررتُ أن أغامر مع (جواد سليم) وأكتب عن تكويناته الراسية في ساحة التحرير، قد تتطابق القصائد مع رؤية النحات، ومن المؤكد أنها ستختلف، فالإبداع بكل ثيماته ليس سوى مغامرة تحتمل التأويلات ...فلأغامر إذن، وإذا فشلتُ، سأدّعي ما ادّعاه الحيدري بلند ....

وهكذا يبدأ الإبحار، مرة بإيهامنا، وأخرى، بالإشارة والتنبيه إلى الأشكال التي احتواها النصب، ثم مرة في التجريد اللامتناهي « بأخاديد الدبابات ..تضع القنصليات بيوضها « وأخرى على أسنان الواقع « يمعودين « في ملخّصات شعريّة وإضاءاتٍ، لا يمكن وضعها في إطار شكل فني محدد سوى أنها شعر خالص، يجيد أداءه جواد الحطّاب .

2

هناك مفارقة، تعتمد الحذق والتمكن اللغويّ وطريقة صناعة الدهشة، في شعر جواد الحطاب كلّه، ولعل البروفايل، نموذج متقدم لنسيج هذه المفارقة، التي تحمل طرافتها منقوعة بالدم، على طريقة جان بول سارتر، حين يعرّف الدبلوماسيّة على أنها « اللعبة التي تبدأ بالمزاح وتنتهي بالدم»، ووفق هذه الرؤية ينحت الحطاب مقطوعة مدهشة بسيطة عميقة جميلة يقول فيها:

كان لبغداد ..أربعة أبواب
* باب الشام
* باب الكوفة
* باب البصرة
* و..باب خراسان
.....
.....
وكان للمنذر يومان
.....
.....
لبغداد ..أبواب أربعة
* باب كلوذا
* باب الظفرية
* باب السلطان
* و ..باب الطلسم
.....
.....
الآن لبغداد باب٭ واحد٭
باب ال آآآآآآآآآآآآآآآه
وتعددت الأيام:
* الجمعة الدامي ...
الأحد ....الثلاثاء ....السبت ....الأربعاء
....
.....امتلأ الأسبوع دماً
فمن أين سنستأجر أيّاماً بيض ...
وهمرات \ فتاوى\ الأحزاب
سجّلتنا:(زائدة) حياتية !!!!!)
.....
.....
يسير الأنبياء على الماء
ونسير على اللهب ...
.....

فهل اختارنا الله لتبليغ رسالته الجديدة ؟؟

وهكذا، تنساب القصائد، تلوّح بدلالاتها، وتوهم، ثم تمسك، حتى يجري تأويلها محمولاً على بعدين هما الماضي، المرصود نحتاً، والحاضر الموجع شعراً، وهو ارتباط رمزيّ ومسيرة دم لم تبدأ الآن، ولم تتوقف؛ فالعبارات المكتنزة بالمعنى والإيحاء تشير إلى الأحداث، بوصفها أكثر حقيقة من التاريخ، وبوصفها منتقاة بذهن شاعر ووعيه وإحساسه، لا كسياق خبريّ يصف الفجيعة،بل يعبر بالنزف ذاته عنها، وبأسلوب قريب من الجميع، معنيين وغير معنيين، وهذه هي الوظيفة الحقيقية، للشعر، يكون فعله كفعل الموسيقى، لا تحتاج إلا إلى إحساس وتذوق وإصغاء للجمال، وإلا كيف نقرأ:

سنلعب ....
لعبة الحكومة والمتظاهرين
ممتطين هراوات
عصيّاً كهربائية هذه المرة !!
.....
.....حين أموت
ادفنوا معي بطارية ضوئية
فأنا أخاف من الظلام
.....

هكذا، تنسج الصورة من أعقد نقطة في الذهن، لتصعد إلى فضاء العفوية، ورسم الصورة الشعرية، المنطلقة من الواقع، والممهوة فيه، تقديساً للفعل الشعري، وبذلك تصف وتعبر، وتحلّق أيضًا، بلا ارتباك ولا تكلّف، كما أنها قالت الكثير، وعبرت عن هواجس ومعاناة الفرد، فما احتاج الشاعر إلى التصريح العلني الفج عن أزمة الكهرباء، مثلاً؛ بل رسم لها صورة جمالية عبرت شعريًا عنها، وهكذا مع كل الهموم الانسانية، ومع كل صور المعاناة، جاءت مبنية بإتقان، واضحة لكنها غير مباشرة، بسيطة وعميقة .

3

الشاعر جواد الحطاب بدأ رحلته الغنية في عالم الشعر، بقصيدة التفعيلة، الموزونة، اتضح هذا الخيار الفني، من خلال قصائده التي نشرها قبل مجموعته الأولى «سلاماً أيّها الفقراء» ثم في مجموعته والمجموعات التي تلتها، عدا مجموعاته الأخيرة، التي تخلّى فيها عن الأطر الشكلية، وتخلّى حتى عن الفهم التقليدي لتجربة قصيدة النثر، فلم يعد الشكل يؤرقه، ولم تعد عباراته المكتنزة، مصغية إلا إلى جوهر الشعر، فتخلّى عن الممهدات، والمقدمات، والإيضاحات، ليستخلص «بيت القصيد» من دون غيره، ويؤدي بذلك هدف الشعر، دون اللجوء إلى أية قشور، أو عكازات لغوية إو إطالات يبتعد فيها الشعر عن جوهره، لتعود، شذرات في جسد القصيدة تتناثر هنا وهناك، لا يفعل الحطاب ذلك، بل هو كما قلنا يصطاد اللؤلؤ من بين أكداس القواقع التي يجدها على شاطئ اللغة، وهو بذلك، وليسمح لي العاملون في حقل تجربة «قصيدة الشعر» إنه يكتب نموذجًا ممتازًا لهذا اللون، من دون الافصاح عن التسمية؛ فالشعر عنده هو الأساس،

تأملوا معي هذه اللؤلؤة:
حبّة دمع واحدة
من عين أمّ ...
كافية لتعقيم الملائكة
.....
أو .....
يرسب أولادنا في الدرس
.... لا يعرفون إعراب المفخخات أو ...
....أيتها المرأة
لا ترمي القشّة التي كنستها من ساحة التحرير
فهي من ذرّيتي ...
.....
أو ...
..... لن نعيدك للمحارة أيتها اللؤلؤة
فلا وريث لأفراحنا
.....

أستميح الشاعر المبدع جواد الحطّاب، عذراً فأرسم صورة له، أتخيّله فيها، متعلّقاً بنصب الحرية، متأملاً إياه بعمق، لينزل بعدها، ويدير ظهره للأشكال المرسومة، ثم يمضي متسكعاً في المدينة، مرةً في آفاقها، وأخرى في عمقها، ليأخذ صوره من حياة بغداد وعشّاقها وفقرائها ومتسوليها وضحاياها وطقوس المحنة فيها، فيما يحمل بذهنه رابطًا فنيًا يذكّره بمخفيات الفنان الراحل جواد سليم ومساوراء أشكاله المجسّدة، وهذا هو أهم سرّ في نجاح تجربة جواد الحطاب في محاورة مغزى النصب، وليس ظاهره، يقول الحطّاب:

يا رجال اليافطات
نظّموا سير اللغة
وابعدوا (الإشارات)
عن حرفها السرّي٭
....فالنص في الشارع للمرة الأولى
أعطوا «المارشات» مخالفة البراءة
ودعوا الغناء يمر
فالدرب طويل
من الروبوت إلى شقائق النعمان
المزيد من الألوان
المزيد من الثانية ظهراً
لئلا تنمو على النايات
ساعات حظر الليل
.....

هكذا إذن، عين في أقصى السماء، وعين٭ أخرى في القاع، هكذا يتلمّس الشعر، لغة الواقع وإيحاءها الجمالي والفكري، بصياغة، تمتزج فيها فصول المهارة والحذق والموهبة، لتخرج لحظة شعريّة متكاملة، قريبة من الذهن والقلب وحتى الحلم .

4

ركام٭ من الرؤى والأسئلة الشائكة، لخّصتها لألئ الحطاب، فأعطت إشاراتها، لتفتح أبواباً للتأويل والإحالة إلى ضروب الحياة الراهنة المعقدة في الحياة، فنصب الحرية، في مركز الألم .. صوره وإيقاعاته المتحولة دائمًا، تصغي لنبض قلب بغداد، مكاناً وأبعادًا دلالية، طالما اجتذبت شعراء وعشاقاً، جنونهم أبهى من رجاحة العقل، ومن هنا رمى الفنان الراحل

البقية.....ص22

جواد الحطاب

رأي في قصص ((حنا مينه)) القصيرة

مؤيد الطلال

تتجسد الصور الشعرية في أدب ((حنا مينه)) أكثر فأكثر في قصصه القصيرة؛ إذ ترق لغته وتصفى, وتتخلص جمله من الإيقاع الصاخب والأورام الزائدة, وتصبح أكثر ألفة وشاعرية وإنسانية. ونتيجة لذلك تكون صنعته الفنية أكثر دقة واختزالاً وإحكاماً مما هي عليه في الرواية... وباختصار فإن ((حنا مينه)) ينجح إلى حدّ كبير في قصصه القصيرة لتكثيف تجربته الإنسانية العميقة, وبلورة مشاعره المتعددة والمتضاربة أحياناً.

وتظهر هذه الخصائص الفنية جليًا في بعض قصصه؛ خاصة قصتيّ «رسالة من أمي» و<<الأبنوسة البيضاء>> المنشورتين في مجلة المعرفة السورية [العدد 97 عام 1970 + العدد 101 عام 1971 م].. وتوجد قصة «رسالة من أمي» في كتاب الرواية والروائي [منشورات وزارة الثقافة بالاشتراك مع دار البعث / آذار 2004], في حين تحمل لاحقاً <<الأبنوسة البيضاء>> اسم مجموعته القصصية المنشورة عام 1977 عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق.

تأخذ القصة الأولى شكل رسالة تمليها أم الكاتب على بنت أخته الصغيرة (هيفاء). ويحاول القاص من خلال هذه الرسالة الكشف عن عوالم ثلاثة: عالم الأم الذي ينتمي إلى الزمن الماضي, الذي يمثل البساطة الشعبية والعفوية الإنسانية في التفكير والإحساس والسلوك على حدّ سواء, وكذلك عالم البنت الصغيرة (هيفاء) الذي يرمز إلى الزمن الآتي, وإلى وداعة الطفولة وبراءتها الحية والذكية في آن.. ثم عالم الكاتب الآني من خلال المنظور الاجتماعي, الحسي والبسيط - كما تجسده رؤية الأم خاصة – وإن كتبت القصة في مجملها بأسلوب ومنظور المؤلف ((كلي المعرفة)) الخبير بشؤون أبطاله وشخصياته, كما هو الحال في معظم القصص الكلاسيكية التقليدية.

والعوالم الثلاثة تتداخل في هذه الرسالة في لغتها ومنطقها وأحاسيسها وألوانها المتضاربة , حتى تكاد أن تخلق عالماً واحداً خيالياً صرفاً, نقياً وشفافاً حدّ العدم واللاوجود. ولعل مهارة الكاتب تكمن هنا بالضبط , في عملية الخلق والتكوين من عوالم متناقضة, ولكنها متداخلة أيضا في عملية توحيد اللغة والإحساس والفكر, وخلق حالة انطباعية في روح القارئ تبعث على الغبطة والفرح الطفولي الشرس, وكأننا أمام لوحة من لوحات رينوار الصباحية!!

لقد استطاع الكاتب في هذه القصة, من خلال استغلاله التجربة الإنسانية والخيال الشعبي الخصب, ومن خلال تنقية المفردات المحلية – استطاع تحويل نثر الحياة العادي, اليومي والمباشر, إلى صيغ شعرية مكثفة, نابضة بعمق التجربة, برهافة الحس الإنساني, ومفعمة بالرائحة الإنسانية الطبيعية.. فأصبح بذلك البسيط مُرَكباً, كما تحول جهل الأم أو عدم معرفتها القراءة والكتابة إلى ما يشبه الحكمة. وقد تجيء تلك التجربة حسية وفجة أحياناً, أو تجيء روحية صافية لا يطالها إلا إحساس مرهف وعقل متقد.

غير أننا وإن كنا نتفق مع القاص في أن التجربة الإنسانية الحية والعميقة يمكن أن تتحول إلى حكمة شعبية, أو إلى حكمة إنسانية عامة ومكثفة كما هو الحال بالنسبة إلى شخصية زوربا – نموذج الإنسان الحسي شبه الأمي, الذي ينطق بالحكمة, المنتصر على نموذج المثقف – فإننا لا نتفق معه حول مسألة الصياغة الفنية التي ينبغي أن تخرج عبرها الحكمة من فم الإنسان الشعبي المجرب, كما هو الحال بالنسبة إلى لغة ونمط تفكير الأم التي تبعث رسالة إلى ولدها ((حنا)).

ومن هنا يمكننا أن نضرب مثلا على عمق المسافة التي تفصل أدب ((حنا مينه)) عن النموذج العالمي للقصة, النموذج المجسد في أدب كازنتزاكيس مثلا:- إنّ زوربا يطرح أكثر الأفكار استعصاء على الحل المنطقي المجرد, انطلاقاً من تجربته الحياتية الرافلة بعنفوان الحياة وألوانها المختلفة, لكنه يطرحها بصيغ تتناسب مع مدركاته العقلية وطريقة تفكيره. فهو لا يقول مثلا ((إنّ الفقراء هم ملح الأرض)) كما تقول أم حنا في رسالتها إلى ولدها, إذ إنّ هذه العبارة البليغة, وهذا التكثيف الفلسفي العميق لدور الفقراء في الحياة الاجتماعية, لا يمكن أن تتفوه به امرأة جاهلة أو أمية حتى وإن كانت قادرة على الوصول إليه من خلال عمق تجربتها الإنسانية.

ومع كل هذا, فإنّ هذه القصة عبارة عن لوحة حية رائعة تتداخل فيها الخطوط والألوان تداخلا إنسانياً وفنياً عظيماً, باستثناء هذا التناقض بين الواقع وطريقة التعبير عنه والذي ضربنا مثلا له. أما الخطوط المتوازية في شكل هندسي بديع, والملتقية في ارتباطات جدلية حية – خاصة الخط الذي ينتقل من الماضي إلى الحاضر, والخط الذي يوصل التجربة الإنسانية باللغة الشعرية المكثفة وبنمط التفكير الإنساني الخلاق – فإنها تعطي للوحة بعداً رمزياً ومغزى إنسانيا عميقاً.. في حين تضيف الألوان الهادئة, والتنويعات الموسيقية الرقيقة, إلى اللوحة جلال سحر ودفئاً إنسانياً لا ينضب!!

تعتمد قصة <<الأبنوسة البيضاء>> على ثلاثة عناصر درامية مجسدة في شخصيات, وترتبط هذه العناصر/ الشخصيات في وحدة المكان: مهندس ومدرسة ورسام في سيارة واحدة, والسيارة تمضي في طريق ينساب بين حقول الزيتون والبرتقال.

والخطان الرئيسيان اللذان يربطان شتات القصة, ويكونان هندسة الشكل الفني الذي احتوى جملة أهداف فكرية وإنسانية, هما الخط الخارجي الذي يملك زمامه القاص نفسه, والخط الثاني (الداخلي) الذي يكاد أن يفلت من عالم القاص وينهض شامخاً كعالم قائم بذاته, يستمد حيويته وألقه من خيال الرسام المترع بالخصب والحيوية الطبيعية, الجامح نحو آفاق غير مرئية وبعيدة المنال!! حيث يكشف الكاتب, منذ الكلمات الأولى في قصته, النقاب عن طبيعة المخزون الروحي الذي يمور ويموج / يغلي في أعطاف نموذجه الأول وهو يخاطب ذاته: " سيزان رسم تفاحات وبرتقالات. طبيعة صامتة. أنا أحب الطبيعة الصامتة. فشلت في رسم حركة النوارس وهي تصيئ مذعورة. ولكني لا أريدها صامتة, جالسة على منكب الموج.. ص 173 من مجلة المعرفة العدد المذكور سابقا ".

يتكون النسيج الداخلي لعالم الفنان (الرسام) من روافد وتيارات عدة: تيار الشعور – المونولوج والتداعي الحر – التأمل والحلم. وقد استطاع القاص أن يوظف أيضًا الاقتران الشرطي, والأسطورة, والرمز, والأغنية, واللوحة الفنية... الخ ' مستعيناً بلغة الشعر المكثف من أجل امتلاك نثر الحياة, خالقاً عالماً حلمياً ووردياً ذا نكهة خاصة ورائحة مشبعة بأريج الطبيعة, ومثقلة بالرؤى النبوئية الصائبة والطامحة لامتلاك العالم وبعثه من جديد!!

إنّ الخطين يتوازيان غالباً, ويلتقيان أحياناً, ونقاط التمفصل والارتكاز بين طرفي الخطين هي التعبير الأسمى عن تطور الشكل الفني عند ((حنا مينه)) في هذه القصة؛ حتى يكاد أن يختلط العالم بالذات الإنسانية وتتجسد وحدة الوجود الكمية والنوعية في كتلة تركيبية حية, جديدة, واسعة ومتينة: " حسناً.. أنا أكلم نفسي.. يكفي.. ماذا لو نمت في مقعدي الخلفي طالما أنه فارغ, وأن أحداً لا يصغي إلى شروحي؟. أقعى الفنان في زاوية المقعد وخرج من السيارة. كان يحس أنه ليس بداخلها, والآن نهائياً. ذهب مع أفكاره وبقي جسده مركوناً يتهزهز – ص 174".. ومضت السيارة تنساب أيضا, كانوا داخلها وخارجها معاً. يخرجون, يدخلون, وهي تمضي.. كل له عالمه الخاص.

ويعود بنا القاص إلى لحظات اللقاء الأول, ثم يتقدم متوجساً نحو الأمام, لكن متوغلاً في الأعماق للكشف عن مخابئ النفس البشرية. هكذا طفق يفكر المهندس:- بناية هنا.. على عضادات, فندق بعشرة طوابق.. مشرع للشمس والريح ولك الحرية الكاملة في أن تتلاعب برسمه كما تريد.. نوافذ.. أبواب.. شرفات. غرفة نوم بحمام, وامرأة, وضوء قمر.. نعم! غرفة نوم وامرأة وضوء قمر, وهذا المدى الأزرق المترامي. فالمهندس, الذي هو رمز العلم والحضارة, يريد أن يجمع ما بين المادة والروح, بين الطبيعة الأولى والتطور التكنولوجي, في حين ينكمش الفنان على ذاته, ويغرق في رؤاه الغريبة كما في المقطع الآتي: ((لم يبادلاه الحديث.. لو فعلا لتبرر وجوده. حسناً! هو أيضا لن يتحدث. تطاول على المقعد وشبك رجليه. ليكن الصمت. هو يميل إليه. ولكم تمنى في لياليه, عبر الظلمة والسكون, أن ينظم سهرات صامتة: يلبس طرطوراً طويلا, يتحزم على عباءة فيجلس متربعا وأمامه نار يتصاعد منها بخور. الناس من حواليه صامتون, والحديث بلا كلام. اهترأ الكلام, أصبح ضرورياً أن يقام أسبوع للصمت, كما يقام أسبوع للنظافة. يسكت اللسان, يتنظف, تتطهر النفس, وينظر الإنسان إلى داخله – ص 178)).

ولكن جمهورية الصمت التي تحدث عنها يغشى سكونها صوت المرأة, الساق الجريئة التي تخطو بالمجتمع نحو التقدم. هكذا يرى الفنان.. رابطاً بين الماضي القديم (آثار ماري) وبين الحاضر المعيش (أنديرا غاندي) ؛ وبين اللحظة الآنية: وجود هذه المرأة اللذيذة [المدرسة] أو الأبنوسة البيضاء كما يحب القاص أن يسميها / يصفها.. مستغلا أسطورة (بلقيس وسليمان) استغلالا فنياً ورمزياً يتناسب مع اللبنة التي يضعها في الهيكل القصصي لينهض عليها البناء الدرامي.

إنّ الأسطورة هنا ليست ماضيًا بعيدًا ولا مجرد حكمة معقولة / منطقية؛ بل إنها لحظة معيشة, رابطة استمرار بين الرمز الوجودي المجرد وبين الواقعي المشخص. والقصة كلها عبارة عن رموز للحياة المعاصرة التي تتحكم بها عناصر الصراع الدرامي الثلاثة :

1 - العلم والصناعة. ورمزهما المهندس الذي يشكل القطب المغناطيسي السالب, وصيغته الأسطورية هي (الملك سليمان).

2 - النبي الشاعر والفنان, الرافض لحياتنا الحالية والحالم بقيام عالم طبيعي شفاف ورائق في آن واحد.. ويشكل هذا العنصر القطب الموجب في الجذب المغناطيسي.

3 - المرأة التي تطمح في مجد سليمان – ولأجله تقبع طائعة في علبة السردين, وإن كان لها أذن تسمع من خلالها نداء الغابة – وتطمح في العودة إلى الطبيعة وتلبية النداء, مع الفنان, وعبر رؤاه الخيالية.. ويصبح هذا العنصر بمثابة الارتباط الشكلي والرمزي بين قطبي المغناطيس.

وتبرز عناصر الصراع الدرامي الثلاثة هذه من خلال بعض السلوكيات البسيطة والموحية من قبل الأشخاص الثلاثة..ومن خلال المونولوج الطويل الذي يدور في ذهن الفنان, الذي يشغل أكبر مساحة من القصة, ويعبر بصيغ رمزية وأسطورية وشعرية عن أبعاد ذلك الصراع الخفي. الصراع الذي ينجح القاص إلى حدّ كبير في إظهاره للنور, متعاطفاً تعاطفًا كلياً مع رؤية الفنان الذهنية والروحية.

وقبل أن نناقش مضامين تلك الرؤية, وسبل التعبير عنها, علينا أن نتابع أولاً أهم خطوط المونولوج الطويل للفنان, مؤشرين على أهم نقاطه بعد اقتباس المقطع الآتي من القصة: الغابة تنادي ونحن نتجاهل, الريح كرسول أمين, تذهب وتجيء ونحن نتجاهل. نخاف على شيء ما: أحذيتنا, ثيابنا, وقارنا, لا أدري. سيارتنا تنساب على الشريط الاسفلتي اللاحب, وثلاثة عيدان في علبة كبريت.

حنا مينة

فارهة ولكنها علبة. والغابة عالم من الخضرة والصمت والأسرار.. ألا يحركك النداء يا سيدتي؟ وأنت يا سيدي, أي طابق تبني الآن؟

في هذه الحدود يبقى وعي الفنان صافياً وصحيّاً. إنه ينبهنا إلى واقعنا. يوقفنا ويعيد صياغة سؤال الشاعر الكبير ((ويرزد ويرث)): لماذا لا نقف أمام الطبيعة؟ لماذا لم نعد نتأمل السماء, الوردة الحمراء, أو نقف عندها كثيراً؟؟ غير أن الفنان يوغل في دعوته إيانا للعودة إلى الطبيعة, ويطلب منا أن نرفض القشور الحضارية ونعود إلى الغابة.. ومن هنا تبدأ هذه الدعوة في الجنوح, والانحراف عن الميل الطبيعي للإنسان إزاء صفاء الطبيعة وسكونها الجليل, باتجاه رفض الواقع الحضاري رفضاً كلياً والرجوع إلى الحياة القطيعية – الطبيعية – الحسية, لكن الفجة كما في المقطع الآتي :

- دعا السيارة , هنا, على الطريق. رافقاني في رحلة ننزع بها قشور قلوبنا ونلقي بها إلى النار. هيا! اتبعاني.. سأمضي بكما في تطواف لا ينتهي, عبر غابة لا تنتهي, نخطئ , نضل الطريق, ندور على محاورنا, نتلمس الشمس من فرجة بين الأشجار, لا نجد الشمس, لا نميز الجهات الأربع, نضيع.. نخاف, نهتز من الخوف, نموت منه إذ نسمع عواء ذئب أو زئير أسد. هذا ما أريده. الخطر! أن نواجه الخطر. الموت! أن نصل إلى حافته, ثم نعود إلى الحياة. آه يا سيدتي.. هل كنت يوما على حافة الموت وعدت للحياة؟ لو حدث لك هذا مرة, لاشتقت أبدا إليه. وأنت يا سيدي! وصلت الطابق الخامس؟.... دع طوابقك ومشاغلك. تابعني في الغابة, السيدة أكثر استجابة منك لنداء الغابة. عما كنت أتحدث؟ أن نواجه الخطر؟ نعم! نمضي عبر دروب غير مطروقة, وفي كل خطوة نكتشف مجهولاً....

وهنا نلحظ أن روح الفنان مترعة برومانتيكية المغامرة والبطولة [وكان الكاتب قد جسدها من قبل في أعماله الروائية أيضا, خاصة رواية الشراع والعاصفة] , نازعة نحو شكل من أشكال التنسك الصوفي, راغبة في أنسنة الطبيعة؛ أي إغداق الصفات الإنسانية على مظاهر الطبيعة المنوعة: حيوانات, أشجار, أنهار...الخ.

وقد لمسنا هذه الروح الرومانتيكية , المشبعة بمفهوم بدائي للبطولة, في آثار الكاتب السابقة أيضا خاصة رواية الياطر ؛ كما استفاد من مؤثرات الأدب الأوربي عامة في هذا المجال = وأدب كازنتزاكيس [النموذج الزوربوي: الطبيعي والحسي + نموذج الأبطال المفتونين بروح المغامرة من أجل المغامرة, كما هو حال بعض أبطال روايتيّ الأخوة الأعداء والمسيح يصلب من جديد..] = وكذلك <<أندريه مالرو>> الذي تهيمن على كتاباته روح المغامرة والصراع, وفكرة الموت, هيمنة مطلقة كما في رواية الوضع البشري أو قدر الإنسان, خاصة عند

←

الشخصية الرئيسة فيها ((تشن)). غير أن تأثير الأديب الانجليزي ««د. ه. لورنس»» على كاتب قصة <<الأبنوسة البيضاء>> أكثر وضوحًا ونفوذاً من الكاتبين السابقين, وخاصة فيما يتعلق بمفهومه عن الحضارة والجنس والعودة إلى الطبيعة. ولنا في المقطع الآتي من القصة برهان على ما ذهبنا إليه من استنتاج :

" – هنا تتعرى سيدتي. تنتصب الأبنوسة البيضاء، فتتهامس لمرآها كل أشجار الدلب والسنديان. نحن لن نرى, لن نوصوص إليها من شقوق الخيمة وهي عارية. سنقاوم كي لا نفعل. نكتفي بأن نطبق أجفاننا ونحلم..فقط لو نخرج من علبة الكبريت, لو ندعها على جانب الطريق, لو نقذف بها إلى الهاوية ونتخلص منها... إنّ شيئاً غير عادي سيحدث عندئذ. سنستعيد أنفسنا, يسترد كياننا وجوده المسلوب, ونتحرر من القمقم الكبريتي الصغير هذا!! – [يقصد حنا مينه هنا السيارة كرمز حضاري] -.. يا أهل مدينتنا العتيقة, يا سكان المربعات والمستطيلات والمثلثات وجميع علب الكبريت, أخرجوا من علبكم, من نواويسكم وجحوركم أخرجوا, وتعروا, وأعرضوا صدوركم ورؤوسكم للشمس... الطوفان لم يحدث بعد, لكنه سيحدث يوماً. أنا أثق بذلك, لأنّ السخام الذي تنشره منافذ مداخننا غطى أبنيتنا. صار لزاماً أن يحدث الطوفان, وإنّي لأسمع دقات المسامير على أخشاب الفلك. وبانتظار ذلك ماذا تفعل السردينة التي فرّت من علبتها ولم تجد ماء حواليها؟!

يحاول الكاتب هنا أن يشارك لورنس في مفهومه المثالي للحضارة – والمثالي هنا المفهوم المعاكس للواقعي المادي الجدلي – وأن يطرح علاجاً رومنسياً زائفاً لأزمة الحضارة البرجوازية الصناعية المعاصرة, من خلال العودة إلى الطبيعة.

وبهذا المفهوم الخاطئ يشكل نكوصاً بالنسبة إلى مجمل منظور ((حنا مينه)) الاجتماعي والسياسي, بقدر ما يشكل نكوصًا حتى بالنسبة إلى مفهوم لورنس الطبيعي – والجنسي أيضا. ففي رواية ((عشيق الليدي تشاترلي)), مثلاً, يقدم لورنس سبيلاً للخلاص الإنساني = كما يعتقد = من الحضارة الصناعية ومساوئها يتلخص في العودة إلى الطبيعة وفي الممارسات الجنسية الحرة المطلقة, في حين يبقى أفق كاتب قصة <<الأبنوسة البيضاء>> محصوراً في مثاليته المجردة عن أي بعد واقعي, والمغلفة بروح تنسكية وتطهرية تصل حدّ التطرف والجنون. كما لو أن مفهوم الطهر الشرقي – والعفاف المزعوم – في العلاقات الإنسانية والاجتماعية بين الجنسين, هو الذي يهيمن في هذه القصة على ذهن ((حنا مينه)) المثقف الماركسي كما تشير معظم كتاباته السابقة واللاحقة؟!

إنّ سبيل الخلاص الحقيقي لا يتلخص في عودة الأفراد/ الناس إلى الطبيعة, ولا في إقامة علاقات جنسية حيوانية في أحراش الغابة, ولا في النزعة الصوفية المثالية الأخلاقية المجردة؛ بل في تحويل الواقع تحويلا ثورياً, وبتغيير نمط الإنتاج وعلاقات البشر مع بعضهم البعض – ومع الطبيعة أيضا – وفي السيطرة على الطبيعة وإخضاع مواردها وقواها لصالح الإنسانية عامة, وفي إقامة علائق صحية بين الريف والمدينة, وعلاقات صحية بين الناس خاصة فيما يتعلق بإلغاء الهوة والمسافات المتباعدة من الناحية الاقتصادية.. تلك هي الأسس الواقعية والعلمية الصحيحة التي تقودنا إلى سبيل ((الخلاص)) الذي لابد منه!!

قصة <<الأبنوسة البيضاء>> لا تكشف عن حدث مهم. إنها عبارة عن حلم أو أسطورة شعرية من خيال جامح لفنان. والحدث يمكن أن يتلخص بالتقاء المهندس وزوجته مع الفنان / الرسام , التقاء الكائن بما ينبغي أن يكون عليه, التقاء العلم والحضارة مع اليوتوبيا, الحاضر مع الماضي.. ذلك اللقاء الذي لا يدوم إلا ساعات ثم يتلاشى وينتهي كل إلى عالمه الحقيقي.

إنّ تلك الحركة الخارجية, حركة الأشخاص في سيارة, وحتى الحوار بين عناصر الصراع الدرامي ما هي إلا وسيلة فنية لإبراز حلم ((الجمهورية الملونة)) الذي اختلط بالخمرة, والخمرة التي اختلطت في الذهن الحالم – ذهن الفنان – وصنعت عالماً شعرياً في الصياغة الجميلة, والتعبير الفني, والمضمون الوجداني.

غير أن عيب ((حنا مينه)) الفني الأساس ما يزال قائماً حتى في هذه القصة, وأعني به: الإسراف والإطناب, واستخدام المعيار الإنشائي, والجمل البلاغية الزائدة. حتى كاد أن يتحول المونولوج الطويل للفنان / الرسام إلى نوع من الثرثرة, وإلى نوع من استعراض العضلات الثقافية والفكرية؛ وإن كان حديث الفنان – بوصفه رجلاً مثقفاً – يمكن أن يتناسب مع اللغة الشعرية المكثفة ومع المضمون الفلسفي والشكل الفني الحديث أيضًا. بيد أن الهيكل العظمي للقصة القصيرة لا يستطيع أن يتحمل من الأفكار الفلسفية, والرؤى الوجدانية, والأحاسيس المفعمة بروح رومانتيكية جامحة أكثر مما يطيق؛ وإلا تضخم اللحم الذي يلتصق بالهيكل وأصيب بالترهل والتشويه, وأصبحت الصنعة الفنية للقصة القصيرة – التي لا تقل عن الصنعة الشعرية الراقية بأي شكل من الأشكال – مفككة وضعيفة, لاسيما وأن الكاتب أجهد نفسه لتحويل قصته القصيرة هذه إلى قصيدة شعرية حديثة تعتمد الجملة القصيرة المركزة ذات الطابع الغنائي والإيقاع النثري البطيء.

قصة [[على الأكياس]]

قصة [[على الأكياس]] من القصص الثلاث المختارة لكتاب «الرواية والروائي», مع قصة «رسالة من أمي». والقصة خالية من أية مهارات فنية أو بناءات هندسية ملفتة للنظر؛ لأنها عبارة عن إعادة سرد تقريري لحياة الكاتب في طفولته.. أو إنها في أحسن الأحوال, مجموعة حكايات وأحداث تربطها شخصية القاص – كشخصية محورية - إضافة إلى شخصية اليازرلي. كما إنها مكتوبة بصيغة ضمير المتكلم / الراوي أو السارد, وبطريقة الكاتب ((كلي المعرفة)) التي درجت عليها كل الروايات والقصص القصيرة الكلاسيكية [خاصة الواقعية منها, وقصص جوركي على وجه الخصوص] خلال القرن التاسع عشر, وقبل أن تبدأ ثورة السرد أوائل القرن العشرين على يدّ جويس وبروست وفوكنر و((فرجينيا وولف)) وآخرين غيرهم.

لكننا لو عدنا إلى تاريخ نشر قصة [[على الأكياس]] الذي يشير لعام 1971م لوجدنا النّفس الروائي فيها واضحاً, ولوجدنا جماليات البوح والاعتراف وكشف المستور مع صراحة الحديث عن النفس / الذات بكل أريحية ومصداقية وتواضع..الخ؛ وهو من الأمور النادرة أو القليلة في القص العربي آنذاك. كما أن ((حنا مينه)) يحدد أهدافه بدءاً من هذه القصة, الأهداف التي سيظل يركز ويلح على تحقيقها في مجمل نشاطاته الأدبية عامة (والقصصية خاصة). وتتلخص هذه الأهداف بما يأتي :

1 - « إنني بابانوئيل أوزع الرؤى على الناس, كيف أفتح عيونهم على الواقع البائس « صفحة 21 من كتاب الرواية والروائي [مصدر مذكور سابقا]. غير أن ((حنا مينه)) لا يكتفي بالإفصاح وتفتيح العيون, بل يصل في رواية [[الشمس في يوم غائم]] إلى دعوة الناس لدق الأرض ورجها كما كان يفعل بطله الخياط (المعادل الموضوعي للمنظم السياسي أو رمزه) , مع صديقه وتلميذه الشاب, لتنهض من سباتها؛ ذلك من أجل تحويل الواقع تحويلاً ثورياً كما عبر كارل ماركس وانجلز!!

2- « الإبداع رسالتنا إلى العالم, به وحده نجابه التحديات الثقافية في الجوار وفي العالم , لكن الإبداع نبتة تحتاج إلى الشمس, وهذه أسميها الحرية الفكرية « صفحة 27 من الكتاب نفسه.

3 - ربط المعرفة النظرية «أو مجمل النشاطات الثقافية» بالخبرة والتجربة الشخصية , ومعاناة الكاتب, وتحويلهما إلى إبداع أدبي, آخذاً برأي تولستوي القائل بضرورة نقل مشاعر الكاتب إلى الآخرين أو تحويل النشاط الفني إلى إنساني (ص30 في كتاب كيف حملت القلم – منشورات دار الآداب – الطبعة الأولى/بيروت 1986).

4 - نصرة الفقراء والبؤساء والمعذبين في الأرض. وهذا الهدف واضح في قصة [[على الأكياس]] كما في مجمل أعماله ؛ ولذا فأنه أخذ على نفسه وعداً في تحقيق هذا الهدف, حتى وهو يكتب وصيته: « يراجع ص 160 من كتاب الجسد بين اللذة والألم – الهيئة العامة السورية للكتاب / دمشق 2012 م

هربرت جورج ولز وتأثيره في الحركة الأدبية الإنجليزية

هناء ثابت محمد المداد

هربرت جورج ولز

ولد هربرت جورج ولز في بروملي بمقاطعة كنت في (21 من سبتمبر عام 1866)، وتوفّي في لندن (في 13 من أغسطس عام 1946).

كان ولز قصاصاً وصحفيّاً وكاتباً اجتماعياً ومؤرّخاً يَسّرَ قراءة التاريخ، وقد أثّر تأثيراً قويّاً في حركة التغيير في المجتمع وفي الأخلاقيّات، وفي المعتقدات الدينية مطلع القرن العشرين.

بدأ حياته الأدبية بسلسلة من القصص العلمي المثير.. وكان واحداً من أكثر كتّاب جيله من حيث عدد القارئين.

تتلمذ ولز في العلوم على عالِم الأحياء الإنجليزي توماس هنري هكسلي، وحضرته الوفاة بُعيد أوّل انفجارين ذريين.. فكأننا بحياته وقد امتدّت حتى وسعت الثورة التطبيقية (التكنولوجية) والاجتماعية التي تنبّأت بها قصصه الباكرة.

ولز ابن لأبوين فقيرين، وفي الرابعة عشرة من عمره أخذ يعمل صبيّاً يتدرّب على صناعة النسيج.. وكره تلك المهنة وتركها آخر الأمر، ليصبح معلّم صِبْيَة في مدرسة ريفية صغيرة وهو في السابعة عشرة من عمره، وهنا استطاع أخيراً أن يُغمِل فِكْره فيصل إلى ما هو خير، إذ فاز بمنحة دراسية في المدرسة المتوسّطة للعلوم بلندن.. ومع أنّه لم يوفّق للحصول على درجة علمية، فإنّ السنوات الثلاث التي قضاها هناك كانت نبعاً لإلهامه ما كتب من قصص.

ولمّا كان مدرّساً لا يحمل مؤهّلاً، فإنّه لم يستطع أن يجد إلاّ أقلّ الوظائف مُرَتَّباً في المدارس، حتى نجح في الحصول على درجته العلمية من دون أن ينتظم في أحد معاهد العِلْم.. وفي هذه المرحلة من مراحل حياته كان وزنه يقلّ عن (90 رطلاً، أي نحو 40 كيلو جراماً)، وقد ظلّ مسلولاً بضع سنوات.

كانت محاولته الأولى في كتابة الرواية تقليداً لِما سبق إليه، فلم يُكتَب لها النجاح.. ولم يَكَد يترك التقليد حتى أصبح صحفيّاً وكاتب قصّة قصيرة من الناجحين، وصاحب أسلوب متألّق مرِح، وأمام القصّة الخيالية التي تتناول موضوع العِلْم الجديد.. وأصابت قصّة (آلة الزمن)– التي صدرت عام 1895 – نجاحاً مدوّياً.

تلاها خلال قليل من الأعوام سلسلة من قصص الخيال العلمي الذي يسلب الألباب، ومنها قصّته فائقة الشهرة (حرب العالمين) التي صدرت عام 1898.. وسرعان ما اعتزل الصحافة وخلد إلى الريف ليفرغ إلى كتابة القصص.

هواء الريف، ورياضة البدن، والتحرر من هموم الأعباء المالية – كلّ ذلك عاد على صحته وبدنه بالازدهار العميم.

وعند نجاح روايته (إرهاصات) عام 1901 – وهي أولى محاولاته كاملة السِمات في فنون التنبؤ – جاءته دعوة إلى الانضمام إلى الجمعية الفابية (الاشتراكية) بلندن، فلبّاها من فوره.

وكان ولز مؤمناً راسخ الإيمان بفكرة عصبة الأمم.. وحبوط رجال السياسة في إرساء سلام عادل بعد الحرب العالمية الأولى، قد دفعه – بطاقَتِه العارمة – إلى العمل على إيقاظ بني البشر وتنبيههم إلى عدم استقرار نظام العالَم.

(موجز التاريخ)، الذي صدر عام 1920، وأُعيد نشره بعد المراجعة عام 1931، والذي يحتوي على أكثر من مليون كلمة، قد كُتِب في عامٍ واحد.

وجاء من بعده (علم الحياة) 1929 – 1930، ثمّ (عمل الإنسان وثروته وسعادته) 1932, ووضع الكتابان بعون من آخرين.

وأصبح المعلّم، شديد الفاقة، الفقير المنكوب، معلّماً لبني البشر.. عام 1934 صدر كتاب (محاولة للترجمة الذاتية)، وهو إمام لأدب البوح والاعتراف ومرآة لذهن ولز الزاخر الذكي.

وعلى مدى ثلاثينيات القرن العشرين كان ولز في حومة إعصار كل حدث كان يبدو أنّه سيجرف المدنية نحو التهلكة.. قابل ستالين وروزفلت ليرى هل من المتعذّر إيجاد حل ما للتفرقة الخطرة بين ملكية الدولة والملكية الخاصّة.

خَلَف الكاتب الروائي الإنجليزي (جون جولزورثي) في رئاسة الاتحاد الدولي للشّعراء والكتّاب المسرحيين والمحررين، وكتّاب المقال والروائيين – الذي يرمز إلى اسمه باللفظ الإنجليزي (بن) بمعنى (القلم)– وفي كلّ رجا من الأرجاء، ظلّ يواصل الإلحاح على العالَم بالحاجة إلى ما أسماه مؤامرة مكشوفة لإيقاع الهزيمة بالقوى التي كانت تقود الجنس البشري إلى هلاكه.

ومات ولز في لندن في العام الثمانين من عمره.. ولم يبق موضع للتساؤل عن الحيوية التي أضفاها على الرواية الإنجليزية، ولن يستطيع أحد أن يقلل من شأن أثره في تحويل نظر الجمهور إلى المخاطر والفرص الكامنة في عالَم التطبيق العلمي في الصناعة الذي جاء قدومه مع القرن العشرين.

المرجع

-سِيَرْ مُلْهمة من الشرق والغرب – صمويل نيسمسون و وليام دي ويت – ترجمة إسماعيل مظهر – القاهرة – مكتبة النهضة المصرية.

عذابات الروح

حسان الصاري

نسيت الهم واخترت الأماني
وجئت إليك يسبقني حناني
يعاتبني على النسيان قلبي
وأخشى أن يصدقه لساني
لأني صرت منذ اليوم غيري
لأني قد عرفت من ابتلاني
سأجعل من غدي درباً لأمسي
ومن يومي سأشعل مهرجاني
وأخلع عن يدي قيدي وأمضي
بلا هدفٍ كأعمدة الدخان
لعل الريح تحملني بعيداً
وتلقيني على شفة الموانى
وأبحر لا يهم لأي أرضٍ
سوى أني أفتش عن مكان
لقد عاينت بعد اليأس ضعفي
ومن ضعفي سيبتدئ امتحاني

* * *

لهذا الليل إنصاتٌ كروحي
وأناتٌ كمجدافٍ يعاني
ووسوسةٌ تناجي خفق قلبي
وأصداءٌ ترددها الثواني
وغيماتٌ ممزقةٌ كحلمي
تبعثرها الرياح بلا توانى
برئت إليك من نفسي ومني
وجئتك من غيابات الزمان
خذيني من ضلالاتي وشكي
وجريني إلى دنيا الأمان
فقبلك لم يكن قبلاً ولكن
أحاول أن أعود إلى اتزاني
أصدق ما يقول الناس عني
وأطفئ عامداً جمر احتقاني
وما جردت قبل اليوم سيفي
ولا فكرت حتى..... بالطعان
وما أسرجت للأحقاد خيلي
وما عكرت بالزلفى دناني
فوجهي دائماً مرآة قلبي
وهذا الواضح الصافي بياني
فزيديني التصاقاً فيك حتى
أرى الدنيا أو الدنيا تراني
تهيبتُ الخطوب فلم أزرها
وزارتني فقلت: لك امتناني
أعندك غير هذا الحزن؟ قالت
وأقسى قلت: لن أرضى بثان
أفيضي منه سوف ترين صبري
يدندنه على وتر.. الكمان
فهذا الحزن أصغر من طموحي
فهلا كان حزناً غير آني
سأشتاق الدموع ولا دموعٌ
فدمعي شح والباقي جفاني
لقد ختم البكاء على جفوني
كفاني ما أحملها كفاني
لهذا الحزن ميزانٌ جديدٌ
أفضّله على قدر اختزاني
فأحيانا ترجحه الرزايا
وأحياناً ترجحه الأماني
وأحياناً تساوى كفتاه
فأحزاني لأفراحي تداني
فأرسل زفرةً من بعد أخرى
لعل الهم عن عمدٍ سلاني
فتسقط من ظننت بها ثباتاً
وتعلو أختها فوق امتهاني

* * *

عجيباتٌ تصاريف الزمان
تجافيني وتعشق من قلاني
تمنيني بأحلامٍ عذابٍ
وتحرمني لذيذات المجاني
كأني صرت للأحزان نهباً
تشاطرني وتأكل من خواني
أما يكفيك ما ضيعت مني
وما هتكت من سري المصان
وما أنفقت من عمري انتظاراً
على أملٍ تمادى بالحران
تقضى النصف من عمري شقاءً
وكفك لم تزل تلوي عناني
أحاول أن أشرق خلف حلمي
فتثنيني عن الشرق اليدان
ولو غربت كنت ستمنعيني
كشأنك في استلابي وارتهاني
هبيني من أساراك الحيارى
أما آن انفكاكي من رهاني

* * *

سأكسر قمقمي وأجيء برقاً
فقد أتسعت من بعد الثماني
فهذا الرعد ميلادٌ جديدٌ
سيقتلع الزمان من الزمان
وتهمي الأمنيات على دروبي
وتورق كلّ حاليةٍ ليان
وترقص حولي الأطيار لهفى
على رجع المثالث والمثاني
ولدت الآن من رحمٍ جليدٍ
غذاني الخوف من دمعي سقاني
سآتي لا يهم متى ولكن
سآتي.. والمطية عنفواني

قصص قصيرة جداً

باسم عبدو

ميلاد سعيد..

كانت المفاجأة في ذاك الصباح الربيعي، وجاري الفلاح النشيط الدؤوب على العمل في أرضه، وهو عائد من الدكان يحمل دزينة شموع ملونة.

استجاب الجار إلى سؤالي عن سبب شرائه هذه الشموع، وقال: أدعوك مساء اليوم إلى منزلي للاحتفال بعيد ميلاد الأتان!

كان كلامه جدّياً من دون أن تظهر أية علامة للمزاح أو النكتة أو الاستهجان، لهذا السؤال السخيف. وعندما كررت السؤال باهتمام، ابتسم الرجل وقال بفخر واعتزاز، إنه الوحيد في المنطقة كلها الذي يدافع عن حقوق الحمير. وأول عمل تكريمي لحماره، الاحتفال بعيد ميلاده. وسأدخل بذلك موسوعة «غينيس». والحمار الذي يبلغ عمره عشرة أعوام حتى مساء هذا اليوم، هو صديق ودود ولا يتذمر مهما تعب وجاع.. وهو الذي أنقذ عائلتي من العوز والفقر!

حقوق المواطنة..

تجمّعت الأسماك قرب الشاطئ، وطلبت من الصياد أن يصغي جيداً إلى مطالبها.. أبدى الرجل الموافقة، وألقى شبكة الصيد جانباً، وجلس قبالة الأسماك عل صخرة ناتئة يتعمق لسانها في الماء.

تحدَّثت سمكة كبيرة باسم الأسماك وحددت الطلبات التالية:

أولاً: سن القوانين لحمايتنا من الحيتان، فعددنا بدأ يتناقص.

ثانياً: توفير شروط حياة مقبولة في الماء. ونعاهدك أننا سنبدل شعار(إسقاط حيتان الماء) بشعار(إسقاط حيتان اليابسة والماء).

ثالثاً: نحن على استعداد- مهما كانت الظروف- أن ندافع عن مياهنا الإقليمية، وعن السيادة الوطنية والقرار المستقل. ونرفض أي تدخل خارجي في شؤوننا الداخلية.

رابعاً: نطلب منكم، أننا إذا مُتنا فجأة بجلطة أو بصدمة كهربائية أو بسمّ الأفاعي، أن ندفن في مقبرة الشاطئ قرب الماء، خوفاً من بيعنا إلى تجار اللحوم، وتحويلنا إلى معلبات مرتديلا فاسدة، كيلا نسبب الأضرار للناس..!

براعم لم تزهر..

لم يصدق أن حلمه الذي تبرعم مجدداً، بعد أن أمضى الرجل نصف عمره في الزنزانة، أنه لم يجد زوجته وولديه الشابين في انتظار انتهاء محكوميته والاحتفاء به، وهو السياسي المعروف الذي ناضل عقوداً من أجلهم، ومن أجل حياة أفضل!

قرع الرجل الجرس.. فتح له رجل الباب ودفعه إلى الخارج بقوة، وهو يقول له: ابحث عن عائلتك وعن منزل آخر..!

ضغطت المشاهد المؤلمة على ذاكرته. وكانت أكثر غرابة مما كان يتصور.. برزت مثل تضاريس الأرض، مرسومة بأقلام الرصاص، يغلب السواد عليها، ويتقلص بياض الأمل.. وتخيّل بين خطوطها عالماً عارياً، من دون سقوف أو نوافذ أو جدران!

لن تبيع قلبها..

أتسامح مع الحبيبة لأنها لن تبيع قلبها، بعد موتي بعشرة من الفضة.. بكث كثيراً وفرحث لأنني تركتُ لها كيس حنطة، وجزءاً من خميرة الروح.. وهذا كل ما أملكه. أما زوَّادتي الأبدية فصرّة من دموعها، وضَعْتُها تحت رأسي وسادةً.. وحين تتهاطل ذاكرتي بالأحلام، يعشب القبر وتنبت الأزهار، فأنهض أتلمّس وحدتي.. أتفقّد دموعها، وأعرف أن ما يجري معي في مماتي، كان يتكرر في حياتي. ولم يبقَ سوى رائحة زيارتها الأسبوعية، وقطعة من بخور ورماد!

الليل والنافذة..

البارحة أطلّ الليل من النافذة السماوية.. طلب مني مصباحاً أو شمعة. وأن أصنع له القهوة المهرّبة. فاللصوص سرقوا النجوم والأثاث، وتركوه من دون حذاء وشفرة حلاقة.. ولم يجد القمر من يحمل السلاح ويدافع عنه. ظلَّ مشرّداً، تائهاً، حائراً بأمره، يفتّش عن مأوى له بين الغيوم.

وأخيراً.. قرر الرحيل معها إلى سماء أخرى، يبحث عن نجمة واحدة غيورة، تعيد البصر إلى عينيه وشيئاً من الحُب، مقابل التنازل عن أملاكه المنقولة وغير المنقولة!

درسان..

تعلمتُ من الأسماك كيف أتقن لغتي وأحافظ عليها، وأصونها من الصدأ والتآكل.

ونجحتُ مرة في دحرجة أفكاري وهواجسي في ماء النهر، فالتهمتها الأسماك الملوَّنة وأعادت كتابتها ورسمها.. وحينما قرأها الصيادون جمعوها في سلالهم، وباعوها في سوق قريب بأبخس الأثمان!

وتعلمتُ من الليل كيف أطفئ حرائق النهار، وأجمع حصيد الرماد في ذاكرة من زجاج، وأصنع منه حبراً لأقلامي! وأكتب على خدّ وردة رسالة حُبّ للذين لا يعرفون طعم الأسماك..!

بين الركام..

فتشتُ عن صورتها بين الركام، فلم أجد إلاَّ أصابعها وأسنانها وبقايا لسان، وتجويفين تحت جبهتها يمتلئان بدموع حمرٍ، وشفتين من عظام. وابتسامة مسلوخة من الجلد وشظيّة.

احتفظ قلبي بقليل من الشجاعة والصمود، وهو يواجه الفاجعة والنيران الجائعة.. ظلَّ يحفر خندقاً في الجولان، وساقية حب في اليرموك!

حملتُ غرسة.. احتفلتُ فوق تلّة بعيد ميلادي.. أشعلتُ الحطب بدلاً من شمعة.. تذكرتُ حبيبتي، ثمَّ دحرجتُ قلبي أمامي.. تركته يتقافز فوق الشوك، وبين المسيلات والـدروب، ربما كـان الـفرح يدفعني ويغسلني بدماء الشهداء..!

ملعقة ودماغ..

لم أقدر أن أتخلّص من مشهد أليم.. لم أسمع أو أقرأ مثيلاً له، لكن ربما حدث ذلك في بلاد أخرى!

ظلّت الصورة ترافقني وتلاحقني.. تشبَّثت في ذاكرتي وتخيّلاتي.. تأكل معي وتنام إلى جانبي، وأنا أحوك جنوني ورهبتي.

حاولتُ مراراً أن أدفن الصورة في مقبرة مخيلتي. وأغسل آثارها وأذوبها بالأسيد لكنها أبت. وأكدت لي آخر مرة أنها سترافقني إلى القبر. وحينما أمرّ بذلك المكان تبدو الصورة أكثر وضوحاً.. تظهر بكامل إحداثياتها وألوانها.. تقف الأكياس التي أغلقت أفواهها جيداً، وربطت بإحكام على جثامين المساجين أمامي، جامدة كجدار كلسي. عندئذ أقف مدهوشاً، مصلوباً من هول ما جرى! وتبدأ ثقوب الطلقات تطلُّ من جماجمهم، فأحني رأسي حزناً عليهم وتقديراً لتضحياتهم. ورغم كل المحاولات لإبعاد المشهد من ذاكرتي، إلاَّ أن الفشل كان من نصيبي. فلا يزال الجندي الأشقر وعيناه الزرقاوان واقفاً، كأنه الآن أمامي وهو يخرج ملعقة من جعبته، ويقترب من أحد الضحايا، ويضع الملعقة مكان الطلقة ويبدأ يحفر فيها.. ويخرج جزءاً من دماغه، وهو ينظر إلى الكاميرا ويبتسم..!

الوصية..

لا تبيعي أحلامك لمن يطرق باب بيتك من دون موعد مسبق.. ارفعي ثمن آخر حلم جلس على مائدة الذاكرة يشرب القهوة معك. وإذا كنتِ من روَّاد الحدائق، فاحذري من عامل الحديقة خوفاً، أن يعدّك عشباً أخضر, فإما أن يلتهمك بثيابك أو يمزّق تنورتك بمقصه الكبير! ولا أحد يدافع عنك ويشفق عليك. أنتِ امرأة غريبة إذا تعرَّى جسدك ستنهشك الذئاب.. وما أكثر العيون التي تطاردك!

لا تشربي الشاي المثلّج أو القهوة الباردة.. حافظي على أناقتك، واتركي الحرية لابتسامتك. وإذا غضبتِ من معاكس لك في الطريق، فاطلقي الفراشة المخبّأة في صدرك فيتلهّى بها، لأنه يعتقد أنها تجلب له حظاً سعيداً ومالاً وآمالاً. واتركيه ينطح الفراغ بقرنين من الدهشة!

أسرار تلك الليلة..

لن أتنكّر لأسرار تلك الليلة ولعشق قديم، وأنا أتسلَّق جدار بيتك، وأدسُّ أصابعي بين أعشابه وأشواكه في بحر العتمة.

أبحث عن جسد غائب منذ زمن طويل.. بقايا ذاكرة تستعيد بعضاً منه.. يطلّ عليّ من ثقب في رأسي، وكوَّة في جدار الذاكرة، فيومض قلبي متحسّراً. تهشّم بابه وصدأ قفله.. تخلَّعت نوافذه من ارتطام نبضاته، وهي تدقُّ المسامير الفولاذية لإصلاحه!

لم تصدق أنّي جئتها مصلوباً، ولا تزال الدماء طرية على جدار بيتك.. لم تصدق إلاَّ حين سمعت أنيني ووجعي، يرسمان خطين أحمرين، فاستفاقت من دهشتها.. احتضنتني وبكت على كتفي!

لم تصدق إلاَّ بعد أن لامست أناملها المسامير، وعرفت أنني أصلب من أجلها.. فنزعت المسامير من يديَّ وقدميَّ والأشواك من جسدي..!

الميلاد

ثابت مخلف محمد

مثلما يبسم للوردة طائر

في صباح مشرق الطلعة ساحر

يصطفي جفن الأقاحي والخزامى

والسنا وحيٌّ طروبٌ ثمّ سافر

والرياض الفيح من نجواه نصبي

عندليباً عاشقاً للزهر زائر

مثلما الأنسام تسري مثقلاتٍ

في ربا الدهر بأطياب المهاجر

حالماتٍ بالحساسين الغوادي

بنشيد البلبل الشادي المهاجر

ينتقي إيقاعها الأوراد بوحاً

والشذا المياس يسمو كالبشائر

يجتني الإلهام في الإصباح سحرا

ينظم الإبكار إبداعاً مبادر

يسكب الإيحاء والأحلام فخراً

وابتهاجاً في مدى الجوزاء عابر

مثلما يسطع في الأفق شهابٌ

عابق الأهداب بالألاء زاخر

يمنح الأجواء بسمات ضياءٍ

وصفاءً في خيالاتٍ سواحر

يألف الأنجم جواباً طهوراً

يتسامى منه تبيانٌ معاصر

يتجلى حللاً مستبشراتٍ

من وميض هانئ الإسراء زاهر

مثلما تولد إشراقة فجرٍ

باسم الثغر بقلبٍ بات حائر

هكذا يولد وحيٌ عبقريٌّ

هكذا يولد كالإصباح شاعر

حماة.. وردة القلب

رضا رجب

إلى الدكتور سليم خلوف.. رداً جميلاً

وجدٌ يفيض.. ولا برقٌ بذي سلم

فاكتب إذا شئت أحلامي بحبر دمي

يا أيها القادم الباقي معي أبداً

فاوض على فرحي باليأس والندم

كسر جبال جليدٍ حاصرت قلقي

كأنها في جياد الخيل كاللجم

وحاور امرأة من خلف نافذةٍ

تقول: يا أنت.. يا دامي الجراح: قم

لكم طلعت وما أبصرت ذا عمهٍ

وكم صرخت وما أسمعت ذا صمم

فكن معي أبداً.. أو لا تكن.. فأنا

لا لون عندي بين النور والظلم

خذ وردة الحب من قلبي وخذ معها

ما فهي من كبرياء الحزن والأكم

بلغ حماة.. وقل للساكنين بها

بأنها وردة الياقوت في حلم

فإنها لم تزل في دفتري قمراً

ولا أقول لمن قد لام: لا تلم

ولا أقول لمن قد صاغ لي تهماً:

لقد تجاوزت حد الله في تهمي

ولا أقول له مهما طغى وبغى

وزوق القول: قد أسرفت في الرَّقم

يا من يقول لأهلي في حماة: أنا

أهوى الحياة بلا خضم ولا حكم

أحبها.. حبٌ صوفيٌّ لكعبته

وأعرف الفرق بين الشحم والورم

أحب فيها الألى شفت سرائرهم

وعياً فلم يدخلوا في لعبة الأمم

أحب مئذنةً.. تتلى بها سورٌ

تدعو إلى الحب والإيمان والقيم

أحب ناعورةً ترمي سنابلها

في هدأة الليل حبات من النعم!!

أحب صفصافةً ترخي ضفائرها

على الضفاف فيجري العطر في النسم

أحب حاضرها والسوق قد رويا

أخبار من سلفوا فيها من القدم

أحبّ كلّ نبيل الانتماء إلى

بلاده.. وصفاء اللون في العلم

أحبّ كلّ غيور في إدارته

أحب كل طبيبٍ صادق الهمم

أحب من لم يلوث بالأذى يده

ولم يغص فيه من رأسٍ إلى قدم

أحب من شرفوا فيها مواقعهم

وصيروها بحسن الفعل كالحرم

أحب من قاتلوا عنها.. وعن غدهم

وحاربوا كل أفاكٍ ومتهم

أحبُّ ضاحيةً كنا نمر بها

كما تمر نسور الجو في القمم

أحب بيتاً روى عن صبيتي قصصاً

وسيرة عطرت بالشكر للنعم

أحب عصفورةً في حضن ساقيةٍ

ترش زاداً على الأفراخ في نهم

أحب كل محبٍّ للحياة بها

وما شكا من عناء الهم والهرم

خمسٌ وعشرون مرت وهي عابقةٌ

بطيبات المنى كالأشهر الحرم

يا ربِّ حصن بلاداً عشتها فرحاً

ولا أذاها الأذى في سيله العرم

فإنها جنة الله التي وعدوا

وإنها واحةٌ للحب والكرم

فإنها جنة الله التي وعدوا

وإنها واحةٌ للحب والكرم

إن اللئام إذ صح الزمان لهم

فتكٌ تجاوز فتك الذئب بالغنم

فلا تصدق لئيماً في مودته

حتى وإن أغلظ الأيمان في القسم

وإن أكرم ما أرجوه من زمني

ألا يحول عش النسر للرخم

نجمة السُّرى

عبدو سليمان الخالد

خذْني بشَهدِك، قالتْها، وما علمت
بأنّ للشّهد نبعاً من ثناياها
أندى من المِسك والرّيحان نفحتُها
تسري، فيروي ظماء الرّوح مسراها
ما مسّها الشّوْقُ إلاّ زادها عَبقا
وهللتْ للنّدى، يا طيبَ ريّاها!
كأنّها زهرةٌ، عافتْ خميلَتَها
واستعذبت في جِنان الرّوح مرْعاها
سمراءُ، مدموجةُ النّهدين فارهةٌ
سحرُ اللّمى واحورارُ العين أحلاها
ملداءُ ريانةُ الأطراف ضامرة
شبّتْ براعمُها، والشّوق ندّاها
بروعةٍ أرخصتْ للثوب فتنتَها
إذا مشتْ، أيقظ الأطيار مِشْاها
لو بان للعين ما تُخفي غلائلُها
لأكبرتْ، كيف يُخفي الثّوب أغلاها
تحومُ حومَ الفراش الغضّ هائمةً
وللحياء شروق في محيّاها
كنجمة في السُّرى، إشراقُها طَلِق
يمضي على إثْرها من شاء لُقياها
تُطلّ من هالةٍ زهراءَ، لامعةٍ
لا يجتلي عاشقُ الأسحار إلاّها
فيها من الوجد سِرّ، لا تبوح به
وذاك من فطرة العذراء أشهاها
تُخفي الجوى، والصّبا يُبدي لها صوراً
تَشي بما كان يَخْفى من سجاياها
لما تزلْ نظرةٌ بالحبّ واعدةً
يغني عن الشّرح والتّفصيل مَغذاها
أشيحُ عن نظرة نجلاءَ تَشْغَفُني
ولا أُقاوم ما تُبديه عيناها
إنّي ليشْغَلني شوق لرؤيتها
ولم أبخْ بالهوى والشّوق لولاها
يلوّعُ البعدُ مفتونا برؤيتها
ويَسْهَدُ الصّبُّ مشغوفاً بنجواها
كم راعني حين ألقاها بشاشتُها
وكان حظّي عبوساً قبل مرآها
ودّعت ماضي الهوى، لما حظيت بها
وثار عشق العيون السّود كرماها
دعني من الأمس، هذا اليوم لي، وأنا
ماضٍ، ويبقى غذاءُ الرّوح ذكراها
صدّقت عيني، وأذني لا أكذّبُها
فكيف ألجمُ أشواقي لرؤياها
أظنّ ما أبدع الخلاّقُ صورتَها
إلاّ كما تشتهي، أستغفرُ اللهَ

أُمّـي ذكرياتـكِ مـنْ ذهـبِ

فضيل حلمي عبد الله

أمــي
أصبحت في الوجود قصيدة ...
هبّت كلماتك على تراب الأرض, حديقة
عانقتِ بي كائنات الحياة, ...
وأنا باكتشافي هذا
يا أمي أسافر إلى الأعلى ...
أبلغ منتهى الوجود ...

***

أمي
سألقاك على مفترق الطرق
وهذا البعد يكفي ..
لا معنى للوطن من دون شهداء ..
لا معنى للحب من دون بلوغ الذكريات...
على مرأى الشمس..
قلت للنخيل: أن ينحني,
ويقبل شهوات رأسك,
ويقرأ دندنات صوتك, الأخيرة ..
على إيقاع خطوات الغيم ...

***

أمي
حوارنا موجع.. يا أمي...
لا يشبع حديث الولادة..
ولا يُكمل حكاية النكبة
حتى عصافير الأشجار..
لا تساوي فصول اخضرار الربيع..

***

أمي
سوف أصغي لهديل الحمام,
وأنسج حروف الكلمات
على هامش دموع السماء
وأتتبع هواجس الخطوات..
حتى في ينابيع الأيام!!!
كي نمضي سوياً نحو فجر الأحلام..

***

أمي
أنت فهرس عمري,
فيك فتحت بياض القلب,
وبك, أعلنت رحيل أحزاني
وأنقذني دليل انتمائي
كما أزهرت مدن أفراحي..
فأنا في سماك طفل جديد
يحبو على انحدار النوافذ!!!
وعمري أصبح يطفو فصولاً على وجه الأرض

***

أمي
لكِ ندائي الذي سطره بوح القدر
في خيال المطر
لكِ لحظة انتظار الشوق
في حقيبة السفر
ولكِ قلبي في متعة الكأس..
هناك حطمتها أنثى الرياح...

لن يطوينا البعد أبداً يا أمي..
فللبعد عاصفة
تكرسها قدوم الأغاني..
والفقر والجوع يرتجفان من عبء الحقول..
ينهال فوق رقصات الزهور..
تبين منه رائحة الغدر..
لدموع أمتعتها مدن الثكالى,
ويبتسم الجسد الممزق,
في لحظة من لحظات الموت
فعلى هذا النحو تخطو الخاتمة..
فالأكفان.. كأشجار شامخة..
والفرحة حلم مزقه هدير الماء..

***

أمي
سأبتكر هذه المسافات كلها..
حتى يسري في دمي اختصار الوقت,
فليس مناسباً بلوغ الليل..
على ضفاف شمسنا..
لأننا لا نرغب بالمهرجان
سأحزم كل قواي واشتاح بؤس الحرمان

***

أمي
متى ستكسرين طوق الرحيل
وتخرجين من هذا المستحيل
أمي متى سنحطم قيود القبلات
ونحرق منديل الشتات؟؟ !
إليك زهرة الثائر,
ودفء القلب
إليك صوت الناي وضوء النهار
من دون هذا التعب؟؟!

***

أمي
سأدفن درب اشتياقي تحت التراب يا أمي..
وأبلغ منتهى الذكريات
هناك يكفنني الحب
ويكدسني الوطن
فإما أنت يا أمي,
وإما كتاب!
كلماته من ذهب!!!

صراخُ الموتى

سوسن رجب

مـازال وجهه يـمر أمامي مـراراً وتكراراً.. كشريطٍ سينمائيٍّ لا يتـوقف.. كان يبدو مسطحاً كمربع لكنه بالتأكيد ليس أملس ولا ندياً كتربة خصبة.. بل كنت أراه قطعة صحراوية لم تُمطرها السماء ولا حتى برذاذ الصدفة. كان قد تجاوز الخمسين – هكذا أخبرني – عندما فتح بوابة وجعه على مصراعيها. وبالرغم من عجزي عن فعل شيء ما يساعده، أو يدعم ضعفه لينقله لو درجة واحدة إلى مزيد من قوة أومصابرة.. فقد أنصتُّ إليه التقيته برفقة زوجته المريضة، وابنه الذي يبدو شبه متخلف، وابنته المرتدية الزي المدرسي للمرحلة الإعدادية.

* * *

في ذلك اليوم، ومن دون سابق موعد، وجدتني أنقاد للدخول إلى المشفى الحكومي المكتظ بالبشر. توجهت إلى قسم الممرضات أسأل عن رئيستهم "أم علي" كما أخبرني صديقي الصحفي عندما طلبت منه العون كي يدلني على أحدهم لمساعدتي. وفعلاً ذهبتُ أبحث هناك عن " أم علي " كمن يفتِّشُ عن إبرة في كوم من القش.

قال لي أحدهم: " هناك الكثيرات من "أم علي"، وما حاجتك إليها؟ هل أستطيع تقديم المساعدة بدلاً عنها؟ «

أجبته بعد يأسي من إيجادها: "الحقيقة أنني أحتاج إلى مساعدتها" في هذا المكان حيث لا ملائكة تعمل لوجه الله. لا بد من واسطة.

هكذا أخبرني صديقي الصحفي: اذهبي و«أم علي» ستتولى ترتيب الأمور. للأسف جئت، وظننت أني سأتلقى الرعاية الصحية. فما كان من ذلك الرجل إلا أن أخذ بطاقتي الشخصية وسجل لي دوراً، وأحضر بطاقةً كُتِب عليها اسمي وبضعة أرقام.

حمدت الله، وشكرت الرجل على حسن تصرفه، فلقد أنجز عني نصف المهمة، أما نصفها الآخر فقد كان علي الانتظار في ذلك الرواق الطويل الذي يزيد طوله عن العشرين متراً. كان البشر يتزاحمون فيه رجالاً، نساءً، أطفالاً، شيوخاً، مرضى أنين، وألم وبؤس.

عليَّ الانتظار مثل هؤلاء المساكين، كوني لست ابنة مسؤول، أوصاحب نفوذ أوقرار. وكوني ليس لي صلة لا من قريب ولا من بعيد بأحد العشرة المبشرين بالجنة. لربما كنت كذلك لما احتجت إلى الذهاب إلى مشفى "كل الناس" أصلاً.

* * *

مشيت عبر الـرواق، كنت ألحظ نظرات الإعجاب في عيونهم، وكـان يـروق لي ذلـك الإعـجـاب. كان يبدوالبؤس واضحاً على وجوه الصابرين على الألم. وصلت إلى العيادة المفترضة، فالعيادات بجانب بعضها بعضاً كالبنيان المرصوص على طول الرواق: العظمية، الأذنية، الهضمية، القلبية... كل المقاعد كانت مشغولة بالمرضى.. حمداً لله أنني أستطيع الوقوف.

* * *

هناك عند ذلك المقعد التقيت خضراً جالساً بجانب امرأة تقترب من الأربعين أو تزيد. نظر إلي، نهض واقفاً؛ ثم سألني الجلوس: "تفضلي يا سيدة". كان مهذباً جداً بعكس ثيابه الرثة. كان يرتدي معطفاً يصل إلى ركبتيه. من الواضح أنه فضفاض على جسده المنكمش، وظهره الذي تقوس تحت ضغط آلة الزمن. مؤكد أن أحد المتخمين بالنعمة قدمه إليه. فنوعيته حسب خبرتي بالملابس تبدوجيدة، وهوبالتأكيد لا يستطيع شراء معطف ثمين كهذا المعطف؛ بل لا يدرك أنه من نوع جيد أصلاً، لأنه لا يكترث حتى بكيِّه.

أما البنطال فكان يبدوطويلاً جداً، لذلك قام بطيه من ناحية القدمين أكثر من مرة، كما شد حزامه حول خصره حتى ظهرت ثنيات السروال المخملي عند الخصر، الشيء الذي يؤكد أنه كبير وليس من مقاسه. وحذاؤه... حدث ولا حرج، كأنه قادم من حرب ضروس شنتها عليه الـدروب الترابية، والأرصفة المكسرة حسب مزاج القائمين على أمرها. كما يبدوأن مقدمة فردة حذائه الأيمن قد أصيبت بقذيفةٍ فتحت بها جرحاً بليغاً ومزمناً؛ لربما قد عجز مصلحوالأحذية قاطبةً عن رتقه. أما فردة الحذاء الأيسر فقد اختبأت تحت تراكم طبقات عديدة من الأتربة والشحوم والأوساخ؛ لذلك كان من الصعب تشخيص حالتها الحقيقية.

* * *

كـان خضر قـد نهض بـوجـهٍ بـاشٍّ وابتسامة عريضة كشفت عن أسنان أكل عليها الدهر وشرب، مكرِّراً:"تفضلي يا سيدتي، اجلسي مكاني". حاولت الاعتذار مع الشكر؛ لكنه أصر: " تفضلي، تفضلي".

شكرته مجدداً، وجلست ريثما يحين دوري.

* * *

تبين فيما بعد أن المرأة التي جلست بجانبه هي زوجته. بادرتني بابتسامة. سألتني: "هل أنت مريضة؟ "ثم أكملت من دون أن تدع لي مجالاً للإجابة.. «لا يبدوعليكِ المرض، مازلت صبية يا ابنتي". حاولت التملص من الوقوع بمطب الثرثرة. فأجبتها: " إنها مجرد تحاليل روتينية للاطمئنان ". مفضلةً أن ألوذ بالصمت، لأن الألم والبؤس اللذين يبدوان على الوجوه إنما هما كمرايا أصيلة لا تعكس إلا الحقيقة. كانت هذه المرايا تحول بيني وبين الرغبة في أي كلام، إضافة إلى ثقل الأمراض التي تطارد هؤلاء الناس، بل تهاجمهم لتستوطن في أجسادهم. كان يبدوأن الفقر قد حاصرهم ليزيد الطين بلّةً.

* * *

لكن تلك المرأة التي بجانبي لم تتركني أعصر ألمي في نعمة الصمت وتأمُّل تضاريس الوجوه التي أراها حولي رغبة في اكتشاف المزيد. لقد داهمتني مرة أخرى. كنت أدرك حاجتها إلى الكلام بل البوح. وكوني مجرد عابرة سأسمع ثم أمشي. لذلك ابتسمت كعادتي، إذ فهمت أنني مستعدة للاستماع. كانت تحمل في يدها أوراقاً: "انظري، إنني مصابةٌ بفتقٍ عند السُّرة. ربما أحتاج إلى إجراء عملية جراحية. انظري يا ابنتي. هل هذه الأوراق صحيحة؟".

تناولت الأوراق، استغربت. لقد كانت علّتها في السُّرة ويشير التحويل إلى العيادة القلبية.

سألتها:"كيف أحوال القلب عندكِ يا خالة؟"

أجابت: " أحمد اله بنيتي. فقط ألهث قليلاً. لا شيء غير ذلك ".

استغربتُ، فكَّرتُ بوجود إمكانية ارتباط بين السُّرة والقلب. أنا لست طبيبة والطبيب يعلم أكثر. أرجعت لها أوراقها وربَّتُّ على كتفها. إلا أنها عاودت البوح عن ألمها، عن أطفالها، عن معاناتها. بينما زوجها يصغي. أخبرتني أنها مقطوعة ليس من شجرة؛ بل من أخواتها اللواتي هجرنها لرقة حالها. لذلك حضر معها ابنها إلى المشفى، حيث لا تستطيع تركه وحيداً في البيت. لم يقبلوه في المدرسة لأنه متخلف عن أقرانه.

وعندما أشرت عليها بوجود مراكز لرعاية ذوي الحاجات الخاصة، أجابت بأسى وهـمٍّ: "مـاذا نفعل يا ابنتي، ليس عندنا وساطة. أنت تعلمين، المهم الوساطة. ونحن ليس لنا إلا الله».

كانت ابنتها تنظر إلـيَّ في أثناء الحديث. وابتسمتُ لها فقالت أمها هذه "منى" إنها ابنتي وأنا أحبها كثيراً؛ لذلك لم أستطع تركها والمجيء إلى المشفى وحيدة... اعترضْتُ: " لكن، يا خالة، إني أرى ابنتك بملابس المدرسة. هكذا ستتغيَّب، ستقصر عن زميلاتها. وقد ترسب في نهاية العام الدراسي ".

كررت على مسمعي غير آبهة أنها لم تستطع منعها، فهي تحضر معها لليوم الثاني: " إنها تحبني، الله يرضى عليها ".

- « ومـاذا عن معلمتها يا خالة، ألم تسأل عنها؟! وماذا عن مديـرة المدرسة أيضاً؟! «.

ما كان منها إلا أن رفعت رأسها إلى أعلى، ولوت شفتها السفلى إلـى أسفل: " مـاذا نفعل؟ إنهم لا يهتمون بالفقراء ! فابنتي ليست ابنة صاحب المخفر أورئيس البلدية أوطبيب البلدة... «. هنا تدَخَّل زوجها مضيفاً: " ابنتي مجتهدة، ستدرس وستلحق بزميلاتـها عندما تتعافـى أمهـا. لكن الأمل مقطوع من مقصوف الرقبة هذا (وأشار إلى ابنه) إنه لا يفهم الخمسة من الطمسة، وأنا بلا عمل. (وضرب بيده على صدره). لقد عملت حمالاً حتى انكسر ظـهري، وزوجتي كما ترين مريضة ".

كنت أهز برأسي عاجزة حتى عن كلمة واحدة، وسيل الكلام مازال يتدفق من فمه. " اسمي خضر، أترين؟! قد تجاوز عمري الخمسين. حاولت إيجاد وظيفة في الحكومة كي أضمن التأمين والتقاعد والرعاية الصحية لأولادي على الأقل، لكن للأسف لا ظهر عندي يسندني. انظري (مشيراً إلى ظهره) أنا أيضاً مريض، أعاني الديسك، وآلاماً في المفاصل. المعيشة مكلفة. إنها نار تكوي. ابني الكبير من زوجتي الأولى قد تزوج وهجرني. هولا يساعدني ولا حتى بليرة. لكن زوجته فتاة طيبة القلب. إنها تُحِنُّ علينا من وراء ظهره ".

وأنا مازلت في الاستماع إليه. كان الألم يعتصرني من الداخل، بل يلجم لساني: " مـاذا بمقدوري أن أفعل؟! «.

لم يكتشف خضر أنني أيضاً عاطلة عن العمل مثله مع أن ملابسي مكوية ونظيفة وعلى مقاسي تماماً.

ويستمر خضر في الكلام وكأنه صنبور ماء قد فُتِح، ولا يوجد أحد يقوم بإغلاقه أومراقبته: " يا آنسة، اسمي خضر، أبوأحمد، زورينا في بيتنا عندما تتعافى زوجتي. أسكن في داريا، عند الحديقةبيتنا بسيط، سنقوم بواجبك.. عندنا دالية عنب ديراني، إنها من أفخر الأنواع.. وأنا أعتز بها كثيراً، سيعجبك طعمها ". وأنا أهز برأسي وأبتسم. لقد كانت تلك الابتسامة كالضوء الأخضر الذي يأذن له بالاستمرار في عملية البوح على فطرته وسجيته. كان سعيداً. لقد أفرغ ما في جعبته على أرضية ذلك الرواق، وفي صدري.

* * *

توجه خضر إلى زوجته بالكلام: " هل تفهمين؟! ستدخلين الآن إلى الطبيب. لقد أوصى بك ابن جارنا أبوصلاح. اتصل به أمام عيني على المحمول. سيناديون على اسمك الآن. وعندما يحدد لك العملية سأذهب إلى البيت وأجلب أغراضك. ستنامين حوالي أربعة أوخمسة أيام، وبالتأكيد سنوفر الطعام ". بينما هي تهز رأسها طائعة. وفعلاً جاء ابن أبي صلاح إليـه. كان يرتدي سترة بلون أزرق داكن، يجر أمامه عربة لجمع المهملات. وسمعته يؤكد لخضر أنه قد أوصى بزوجته عند الطبيب.

* * *

في تلك اللحظة حان دوري. جاء الخلاص حين نـادت الممرضة اسمي الـذي كدت أنساه في أثناء جلسة الاستماع تلك. والحق يقال قد غاب عني ما أعاني، فقد أنساني خضر وزوجته ألمي حين أفرغا وجعهما في صدري.

* * *

كان الطبيب شاباً. اكتشفت أنه يـؤدي مجرد وظيفة من خلال ابتسامته الباهتة عندما ألقيت عليه التحية. ما كاد يقرأ التحاليل حتى بدا عليه عدم الاكتراث. حينها خطر بذهني أن أذكر على مسمعه اسم صديقي الصحفي الذي أرسلني "لأم علي" علَّه يعيرني بعضاً من اهتمام. وما أن سمع باسم صديقي الصحفي حتى ازدادت صفحة وجهه عبوساً؛ وأخبرني بامتعاض أنه لا أمل لحالتي وذلك حتى الآن الدواء غير متوفر بسبب سعره الباهظ.

أصبت بخيبة تماماً كانفجار قنبلة في وجهي. لملمت أوراقي، وبينما أنا أهم بالخروج تبادرت إلى مسمعي كلمات من الطبيب إلى الممرضة:» قال صحفي، ناقصنا مشاكل كمان». ازدادت خيبة أملي، بل تمكن اليأس مني. كنت أشعر بالمرارة في حلقي كأنها السم الزعاف. وكـأن الموت يترصد لي في الزاوية، ينتظر الفرصة المواتية لاقتناصي.

أنقذني من ذلك الإحساس بالعدم في خضم الرغبة فـي الحياة. تـذكـرتُ زوجـة خضر. تفقدت مقعدها.. إلا أن سيدة أخرى شغلته. تساءلت ربما دخلت إلى الطبيب. توجد ممرضة عند الباب تمضغ العلكة بطريقة مقززة. توجهت نحوها، سألتها بلطف كمن يقدم لها عقد من ياسمين بلدي.. سألتها عن « ملك « زوجة خضر.. وبعد جهد جهيد تنازلت، دخلت إلى العيادة، ثم عادت حاملة معها الإجابة: " إنها في الداخل.. لقد قرر الطبيب إجراء العملية لها غداً صباحاً «.

* * *

غادرت والرواق يمور بالمرضى. كل حسب وساطته. وليرحم الله من ليس عنده وساطة. مازال وجه خضر يلاحقني بجداوله الغائرة، المتصحرة حول عينيه وقد هجرهما البريق، بلحيته التي لم يحلقها منذ أسابيع، بأسنانه شبه المهترئة، وقد غزاها السواد. وتلك الدائرة الرمادية المطبوعة على جبينه. أعتقد، بل أجزم أنها تشكلت نتيجة للسجود المتكرر للشكر والدعاء إلى الله لإلهامه الصبر.

لم أستطع التخلص من وجهه طول المسافة التي قطعتها، أقفز من حافلة لأصعد إلى أخرى. وصلت إلى البيت منهكة، تسكنني رغبة في الاعتزال عن كل شيء حولي. لاحظت والدتي انزوائي في غرفتي مع أوراقـي. ثم حكيت لها قصة خضر، تألمت، لكنها لا تملك القدرة على فعل أي شيء سوى الدعاء، ومع ذلك أبدت استعدادها – تعاطفاً معي – لزيارة زوجة خضر.

* * *

أربعة أيام مرت. تـراءت لي ابتسامتها لطيفة وبائسة. قررت الذهاب إليها. عليَّ فعل شيء لأجلها، بمجرد الزيارة لربما أسبب لها شيئاً من سعادة. كنت أحب الورد، وأدرك ما يثيره في النفس من مشاعر. غالباً ما كنت أحمله إلى أصدقائي الحميمين. خطر ببالي شراء شيء منه إليها. لكني سرحت بتفكيري قليلاً وتصورت حالهم البائس. تذكرت جملة زوجها خضر بخصوص توفير الطعام. فقررت شراء بعض الطعام للأولاد.

* * *

اشتريت الطعام. وصلت إلـى بوابة المشفى تغمرني سعادة وسط جموع متزايدة من البشر تخرج وتدخل أفواجاً، أفواجاً.

ستقابلني " ملك " بتلك الابتسامة البريئة الساذجة بينما أهنئها بالسلامة. مازلت أحـاول الانسياب عبر سيول الزحام، وإذا بوجه يشبه المربع يتوجه نحوي، كان خضر حزيناً، دامعـاً، يحمل صرَّة بيده ويضم كتفي ابنه وابنته بيده الأخرى.

كان يجر خطاه بصعوبة. أمطرته بالأسئلة: " كيف حالك؟ وحال زوجتك؟ هل أجروا لها العملية؟ «

أجابني وصوته لا يكاد يخرج من حلقه: " العوض على الله يا آنسة لقد ماتت. ليتهم لم يقرروا العملية. لعن الله الفقر. لعن الله الحاجة. آه ! آه ! لوكنت غنياً " وصمت للحظات ثم أضاف: " فليرحمها الله. نجحت العملية، لكنهم قالوا إن جرعة التخدير كانت ثقيلة على قلبها، لم تحتملها، فضَّلت أن تظل نائمة لتوفر حصة طعامها لأطفالها. رحلت. رحلت. وتركت لي الأولاد. كانت آخر جملة نطقت بها قبل موعد المغادرة: " إنهم أمانة في رقبتك ". صار الحمل ثقيلاً، بإذنك يا آنسة، عليَّ الذهاب لأبحث عن عمل، أي عمل كان، حتى لومسحت أحذيتَهم، فأفواه أطفالي مفتوحة للسماء، والأهم من ذلك القبر، القبر، يـجب أن أشتري لها قبراً، ثمنه خمسون ألفاً، لا أملك منها خمسين ليرة...

« في المشفى، أعطوني مهلة أسبوع لأعود بعد ذلك وأنقلها إلى مثواها الأخير، وإلا فسيرمون بها على الرصيف. لعن الله الفقر. لعن الله الحاجة...»

لذت بالصمت مجدداً. لقد عرفت الآن ما هي العلاقة بين السرة والقلب. ليس بوسعي عمل أي شيء له، ولا لأطفاله، ولا لتلك الجثة المخزنة في ثلاجة مشفى " كل الناس ".

ما زال يجر الخطا. لحقت به، ناولته الطعام الذي كنت قد اشتريته:" إنه للأولاد يا عم!» وسألته أن يذكرني بعنوانه علني أُفلح في اصطياد فرصة عمل لأجله. أشـرق وجهه بابتسامة تفيض بجروح تسيل آلام جميع المحتاجين عبرها، وقال: " لقد أخبرتك، اسكن في داريا، أبوأحمد خضر، الحمال، عند الحديقة تماماً ". شكرني على الطعام وهويبتسم ابتسامة جريحة.

وحتى هذه اللحظة مازلت أبحث لخضر عن عمل، وخضر يفتش عن قبر.. أما زوجته فما زالت هناك، مخزنة في الثلاجة في انتظار موعد الدفن المؤجل ! ".

وأنا.. أنا لملمت أوراقي، ثم ذهبت إلى صديقي الصحفي، ونسيت أني عاطلة عن العمل.

هي الشام

إبراهيم محمد جواد

رحيقُكِ يا (شامُ) مسكٌ وعنبرْ
وتاريخُ مجدِكِ في الكونِ أزهرْ

تمرُّ عليكِ القرونُ حُبالَى
فتزكو رياضُكِ بالعطرِ أكثرْ

(فآدمُ) فِي الشامِ حطَّ الخُطا
وفوق ربى قاسيونَ استقرّ

ومنها لأرض الحجازِ سرى
يفتّشُ عن دارِ (أُمِّ البشرْ)

وعاد إليها بذرّيّةٍ
وقال هنا عيشُكمْ والمقَرّ

ففي نظراتِ الشباب حَياً
وفي لحظاتِ الصبايا خَفَرْ

فغنّت مياهُ السواقي بها
بصوتٍ رقيقٍ كهمسِ الوترْ

وهبّتْ رياحُ الهوى حُرّةً
تناغي الحساسينَ فوق الشجرْ

رَنابقُ في فرحةٍ صَفّقتْ
ونَرجِسُها بالربيعِ ائتزَرْ

إذا الشمسُ مالتْ إلى مَغرِبٍ
أطلَّ ينيرُ دُجاها القمرْ

فيسمَرُ نايٌ على ثغرِها
ويجلو عن الوجَناتِ الكدرْ

فمن عاشقٍ سابحٍ في رؤىً
ومن عابدٍ قائمٍ في السّحَرْ

تُطِلُّ الحضاراتُ من مَشرِقٍ
وفي حضنِ راياتِها تزدهِرْ

تسودُ قروناً ولا تنزوي
وتمتدُّ في الكونِ لا تنحسرْ

ومن (قاسيونَ) تسيلُ المنى
إلى غُوطتَيها فيحلو السّهَرْ

هي (الشامُ) مطلِعُ شمسِ العُلى
عرينُ (نزارٍ) ومهوى (مُضَرْ)

وفي ظلّها ائتلفتْ أُمّةٌ
ففيها البوادي وفيها الحضرْ

فمن خيمةٍ فوق نبعٍ صفا
وبيتٍ صغيرٍ على مُنحدَرْ

لقصرٍ مُنيفٍ رَقَى رَبوةً
وأعلنَ عن نفسِهِ وافتخَرْ

وفي ذا وهذا سمتْ أنفُسٌ
أبتْ أن تذِلَّ وأن تُحتقَرْ

إذا الحكمةُ استنسبت والداً
أشارت (لجلّقَ) رمزاً أغرّ

وقالتْ: هنا زُرعت نُطفتي
ونورُ الحضارةِ منها سفَرْ

هي (الشامُ) سِفرُ الخلودِ الذي
روته الحروفُ بأحلى الصورْ

تشيَّدَ عبرَ زمانٍ فخَرْ
بعطرِ الحضارات لا بالحجرْ

وزَندِ الفتوّةِ قد أقسمتْ
تُفدّي البلادَ ولا تُعتَصَرْ

فكم طامعٍ في كنوزِ الحِمى
تلمّظَ في شهوةٍ وائتَمرْ

فسلَّت سيوفاً على المعتدي
وجالت بخيلٍ على من غدَرْ

تُلاقيه أُسداً لها صولةٌ
ومن ناظريها يطيرُ الشررْ

فتلفظُهُ مثلَ لفظِ النوى
وتتركُه عِبرةً تُعتبَرْ

وتُجلي بعزمِ الشبابِ العِدا
وتجلو بفكرِ الشيوخِ الوضَرْ

هي (الشام) فاركعْ على بابِها
هي العلمُ والحلمُ.. وهي الظفرْ

الفَـرَحُ يَهـزُّ سَرِيْـرِيْ

فوزي الشنيور

انْحَسَرَ الدَّرْبُ ، وَنَامَتْ رَاحِلةُ الْحزْنِ
وَفِيْ لَمْحِ الْخُطْوةِ كُنْتُ أُدْخِرُ بِالضِّحْكَاتْ
كَانَ الْحزْنُ يَرُصُّ عَلَيَّ بِكُثْبَانِ الرَّمْلِ
وَيَتْرُكُنِيْ مَطْمُوراً فِيْ بِئْرِ الأَنَّاتْ
أَهرُبُ كالْعَادةِ مِنْ حَالِيْ
يَسْتَوعِبُنِيْ الْبَحْرُ الْمُتَدَارِكُ
فِيْ وَقْدِ الْجَرْحِ الْهَادِرِ فِيْ رُوحِيْ
فِيْ طَوفَانِ الْقَلَقِ الْهَاتِكِ بِالْغَابَاتْ
الآنَ تَحَرَّرْتُ
لَقَدْ غَيَّرَنِيْ الْبُرْعمُ ـ ذَاكَ ـ النَّابِزُ مِنْ فَرَحٍ
صِرْتُ أَرَى فِيْ الشَّمْعةِ ـ أَشْيَاءً أُخْرَى ـ
غيْرَ مُوَاجَهةِ الطَّاغوتِ
وفِيْ الزَّنْبقِ غَيْرَ اللونِ السَّاكتِ

أَعْرِفُ سَاعَتَهَا مَا سِرُّ تَوَهُّجِهَا
حِيْنَ تُلامِسُهَا الأَنْجُمُ
أَوْ حِيْنَ تُبَلِّلُهَا رَائِحةُ الْغَيْمَاتْ
مَا عُدْتُ أُفَسِّرُ مَا لا يَحْدُثُ
أَوْ أَصْنَعُ مِنْ خَدْشٍ مَجْزرةً
أَوْ أَتَعَذَّبُ بِالتَّخْمِيْناتْ
وَلأَنِّيَ لا أَخْلُو مِنْ كَرَزٍ
سَأَمُدُّ عَلَى رَابِيةِ الْعَتْمةِ أَزْهَارِيْ
وَ أُتَوِّجُ بِالأَنْهَارِ
وَأَرْقُصُ حَتىَّ فِيْ دَيْجُورِ الآهَاتْ
صَارَ لِعُمْرِيْ سَمْحٌ آخرُ
فَالْفَرحُ الْبَاشُّ يَهِزُّ سَرِيْرِيْ
يَجْعَلُ كُلَّ شُعَاعٍ

قَابَ يَدَيَّ
وَكُلَّ مَفَاتِيْحِ الْحُرِّيَّةِ ، وَالأَنْهُرِ و النَّايَاتْ
لَسْتُ كَمَا الْعَابِر
لا يَعْنِيْنِيْ النَّاسُ
فَمَا للنَّاسِ سِوَايَ
فَكُلُّ حَزِيْنٍ يُدْرِكُ عُطْرِيْ
أَمْنَحُهُ بَعْضَ أَنَاشِيْدِيْ
وَأَحُضُّ الرَّوْحَ عَلَى تَقْرِيْبِ الْبَحْرِ إِلَى الْبَطَّاتْ
زَوَّدَنِيْ بِغِنَاءٍ
لَيْسَ لَهُ زَبَدٌ
صِرْتُ بِهِ وَطَناً للْغَيْمِ
وَأَشْجَاراً تَتَنَاسَلُ فِيْ الْفَلَوَاتْ

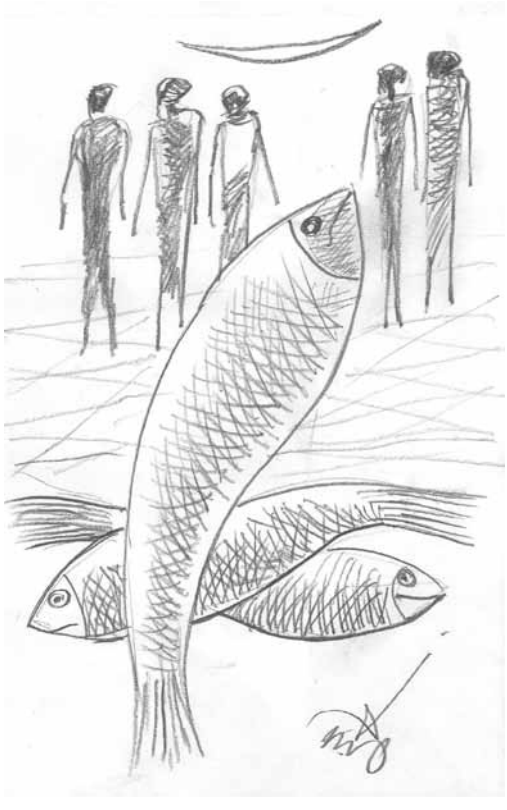

قالت

علوش عساف

قالتْ : مَلكْتَ مشاعِري يا شاعِري

وسَلَبْتَ منّي غَفْوتي وسَرائِري

حتى وجدتُكَ نائماً في مُقْلَتي

وسمعتُ وقْعَ خُطاكَ بينَ أساوِري

تَنْسابُ دفِئاً في حقولِ مفاتني

ويَموجُ عِطْرُكَ ثائِراً بِضَفَائري

أَضْبحتَ للرَوحِ العَلَيْلةِ بَلْسَماً

وشُعَاعَ وَجْدٍ تَرْتَديهِ نواظري

أسْتَنْشِقُ الذكرى أُحِسّكَ في دَمي

تسري بأوْرِدَتي بكلِّ مَشَاعِري

وَأراكَ تفْترِشُ الحنينَ بِلَوْعَةٍ

كالطّائِرِ المجروحِ خَلْفَ سَتَائِري

وَتَشُمُّ قُمْصاني وَتَسْرقُ عِطْرَها

وعلى وِسادَةِ لوعتي ودفاتري

فافرِدْ جناحَكَ فوقَ جَمْرِ صَبَابتي

وانْقَرْ حُليماتِ اللّظى يا طائِري

يا مَنْ كأنْسامِ الزُّذانِ لمهْجتي

نَضَجَتْ ثمارُ مواسمي وبيادري

جاوبتُها وسماءُ قلبي أمطرتْ

فيضاً مِن الأشْواقِ لا تتأخري

هيّا تَعَاليْ نَمْتَطي أَشْواقَنَا

فوْقَ النّجومِ وفوقَ كلّ مخاطِرِ

أنا شاعرٌ لَبِسَ الغرامَ عَبَاءَةً

كلُّ الممالكِ تنحني للشاعرِ

قالتْ: وقدْ شبَّ اللّهيبُ بِصَدْرِها

ها قَدْ أتيتُكَ فاشْتَعِلْ يا شاعري

واسْكُنْ بِروَضِ النَّاهِدينِ كنحْلَةٍ

والثمْ كُنوزَ مَتَاحِفي وجَواهِري

فَغَفَتْ بنا الأشواقُ في مِحْرابِها

قالتْ : كفاكَ الفجرُ قُمْ يا زائِري

بدايات الحلك الزائل

زهير حسن

على جدار الليلك الحزين

تنمو الريح

تنوح المصابيح

والفضاء القريب من القلب

يتمايل قليلاً

مع المصابيح .. معي..

ويبتعد..

الأطفالُ في الظلمة

يرسمون الفجر

بأصابع صفراء

نبتت عليها

زخارف الحزن..

وتلك الشياطين التي

امتدت أذرعها

زرعت الرعب في السكينة

زرعت الريبة

في الهواء الساكن

وأطفأت

مصابيح السلام..

لا يصغي الهواء لدقات قلبي

فهو مقعد حزين

والأمهات ترمي

بسلال الحزن

في دوحة الأمل..

هنّ مثل ورودٍ

تساقطن

مطراً

يسقين علة اليباس

حين يتسرب الهجير

من فوهات الظلام..

يريدون أن يحيكوا أعشاشاً

من الدم

من البؤس والكآبة

لكنهم يرتعبون

عندما يتشابك رصاص غدرهم

بضفائر الأيامى

ودميةِ طفلٍ

رحل في رأده

فوق أسراب الغمام..

وها هم أبنائي

يعبرون إلى الخلدِ

زهرةً تلو أخرى

أعمدهم بالرحيق

وأعرف أن لهم «ضوءاً ذكيّاً»

يبنون به أبراج المجد

مجد الوطن

وكلما حط في الخلد شهيد

علت الزغاريد..

وتلك الغربان

نبتت لهم أنياب

فبانت لحى الذئاب

وعلا السواد مشاربهم

تآمروا .. فالحقد ديدنهم

والقتل مفتاح جهورهم

يتربصون بالأمل

ليقطعوا أصابعه

ليحرقوه

فبئس ما حاكوا

سنهزمهم

وتحت أقدام الجيش العنيد..

تورق جداول الدم ورداً

ويبزغ الفجر الجديد

مجد الوطن

جودت حسن و شرفات النزيف

وسيم خليل

جاس إلى مكتبه، وقد تملكه الإعياء، واتشحت معالمه بتعب مضنٍ، وبدا وجهه كلوحة ٍ لم تكتمل، بملامح إنسانية ينقصها بضع خطوط ونفحة حياة. تراخى على مقعده مستسلماً، وكأنه المحطة الأخيرة في عمره، وعلق ناظريه على جدار الغرفة المقابل له، على الساعة الجدارية المعلقة أمامه. كان عقرب الثواني يستفزه ويثقب طبلتي أذنيه بإيقاعه الرتيب. الوقت يمر بلا رجعة. بضعة أيامٍ ويحال إلى التقاعد، ويرجع إلى بيته أبداً, إلى غرفته الصغيرة الخاصة فوق السطح، وينتهي بلمح الأسى تاريخ من الكفاح والفكر والانتظار بجرة قلم، ويرقد كما دواوينه التسعة, بين رفوفٍ رثة ونسيانٍ عقيم .

تعلو جلبة في الطابق الأرضي للمركز الثقافي. إنه اجتماع لأولياء الطلاب المتفوقين. الجميع في الأسفل منشغلون بنجاحاتهم وأحلامهم وهمومهم، والحياة تتدفق كيفما أتفق. تلاميذ وأولياؤهم وموظفون ومستخدمون ومتطفلون فضوليون يجولون ويتهامسون ويتجاذبون أطراف الحديث في قاعة المركز، وما من حياة، أو حتى شتات حياة يطرق باب مكتبه في الطابق الثاني، ولو مجاملة بداعي الشفقة، أو حياءً من رجل ٍ تطرق الرؤوس خجلاً أمام مرارة سني حياته.

هكذا راح يتلمس نهاية حياته الوظيفية التي يخشاها، بصدرٍ اعتاد الخوف فآلفه، وإحساس ٍ مزقه الإفراط فتجاوز أعتاب الدموع إلى شرفات النزيف، .

يلم كتفيه داخل معطفه اتقاءً للبرد، ويلقي نظرةً كسلى على سطح المكتب. عشرات القصائد والمقالات والقصص تتزاحم تحت لوح زجاجي فقد صفاءه على مر السنين، جميعها ذيلت باسمه. سنوات من العمل الأدبي المرهق والمخلص، ترقد تحت زجاج بائس، وتصفر شيئاً فشيئاً، وما من مغيث. يقرأ بصمت بعضاً من فلذات خياله على مضض، ويدلك فروة رأسه بأصابع يده اليمنى، ويتحسس شعر ذقنه. لم يحلقه منذ ثلاثة أيام، وآن الأوان لذلك، لن يغادر المركز اليوم قبل أن يفعل، بعضٍ من الماء الساخن وقليل من كريم الحلاقة، وتتم العملية بسرعة في حمام المركز في آخر الرواق .

تشعره بعض المفارقات في هذه الحياة بقشعريرة ٍ مرة، وحلاقة ذقنه تستحضر له إحدى هذه المفارقات، فهو لم ينس عندما حدثه أحد أصدقائه عن زميل ٍله، يعمل كموظفٍ في إحدى الدوائر العقارية، أنه دفع ألف ليرة لقاء حلاقة ذقنه في أحد صالونات الحلاقة الفخمة، في حين لا تكلفه هو في حمام المركز سوى خمس دقائق من وقته؛ فالماء الساخن بلا ثمن، وكريم الحلاقة متوفرٌ بكثرة لسخاء المستخدمين في المركز أمام حسن مظهرهم، وشفرة الحلاقة تدوم لأكثر من ثلاثة أشهر كحدٍ أدنى، ويحدث نفسه ساخراً : ألف ليرة .. إنها ثروة في جيب ٍ كجيبي.. تتملكه رغبة في التدخين، فيبادر رغبته بابتسامة باردة ارتسمت فوق شفتيه، وكأنه يرحب بإلحاح ذلك الكائن اللطيف؛ فالتبغ هو الحاجة الوحيدة التي تكفي معها الرغبة كي يلجها، وكل ما عداها من حاجات فهو يحتاج إلى تفكير مطول، وإيعازٍ مفصلٍ من زوجته. يرخي رأسه إلى الخلف بعد أول نفس ٍ من لفافته، ويغمض عينيه متلذذاً بطعم التبغ الممزوج بريقه، ويستغرق في شروده مشاطراً دخانه.. همومه وصمته .

يُطرق باب مكتبه، فيفتح عينيه ويُعدل من جلسته قائلاً :

ـ تفضل ..

يدخل رجل طويل، ممتلئ القامة، استعمر الشيب حواف شعره الكثيف، واستلقى شارباه كجناحي طائر فتي فوق شفته العليا، يرتدي بذلة رسمية ومعطفاً طويلاً أسود، وربطة عنق حمراء، ويحمل في يده حقيبة متوسطة الحجم، بنية اللون.

قال الرجل متسائلاً بتهذيب :

ـالأستاذ...؟

ـ نعم .. تفضل..

ونهض الأستاذ عن مقعده مصافحاً الرجل. تحسس نعومة بالغة في يد الرجل، ما ولد في نفسه حقداً مباغتاً تجاهه. لم يكن ليحكم على إنسان من مجرد مصافحة عابرة، لكن الفقر الذي ترعرع في كنفه منذ الطفولة ولد لديه كرهاً فطرياً تجاه أي مظهر من مظاهر الترف، حتى إن كان في ملمس يدٍ ناعمة لرجلٍ جِلفٍ كهذا الرجل .

ـ تفضل .. قال الأستاذ مشيراً بيده إلى المقعد .

جلس الرجل على المقعد المقابل للأستاذ، أمام المكتب، ووضع حقيبته على ساقيه وأخذ نفساً عميقاً ليسترد اتزان أنفاسه بعد صعوده درج المركز بإيقاع ٍ سريع ٍ على ما بدا من لهاثه المضطرب، ثم بدأ حديثه قائلاً :

ـ أنا .....، دكتوراه في الآداب، رئيس قسم العلاقات العامة في الوزارة، وقد كلفت من قبل الوزارة بلقائك يا أستاذ جودت .

وفي أثناء تعريف الدكتور بنفسه أخرج من حقيبته بطاقةً تحمل اسمه ورقم جواله، ووضعها على سطح المكتب أمام الأستاذ. بلع الأستاذ ريقه بعناءٍ كمن يبلع شوكة جربان برؤوس عدة، فشعر بحلقه يتمزق ورافقه المزق حتى استقر داخل أحشائه ... دكتوراه .. رئيس .. علاقات عامة .. الوزارة .. ترددت هذه الكلمات كصدىً بين جدران إدراكه. إنه يخاف الجهات الحكومية الرسمية، فلم يصادف أن جاءته إحدى تلك الجهات بمبعوثٍ ما أو تقريرٍ ما إلا لتهمة ٍ أُلصقت به، وآخرها كانت دعوى مرفوعة ضده عن طريق المحكمة من قبل وزارة أخرى لمقالة ٍ كتبها في إحدى الجرائد الرسمية، ونشرت سهواً عن رقابة الصحيفة لسوء حظه، وقد تعرض في المقالة لمسائل تتعدى الخطوط الحمراء لصلاحيات كاتب من الدرجة المهملة. رابض على مقعده كمتهم يستعد لرحلة بحث ٍ عن البراءة قبل أن يعرف كنه تهمته، وتذكر بطله مسعود في إحدى قصصه عندما قال لزوجته المفجوعة قبل تسليم نفسه للشرطة لجريمة لم يقترفها " .. تستمد التهمة سلطتها من القدر الذي وظف لها المسببات، وأما البراءة يا عزيزتي فهي كائن عرضي، قد يحدث وقد لا يحدث، فتوقعي الأسوأ ولا تنتظريني ..» .

ـ تفضل يا دكتور .. ما .. ما سبب اللقاء ..؟!

ابتسم الدكتور ابتسامة كانت كافية لترفع ترهلاً تدلى أسفل ذقنه .

ـ في الحقيقة يا أستاذ، الموضوع مجرد مصادفة، وقد حدث على النحو التالي، فمنذ ثلاثة أيام وقعت إحدى قصائدك المنشورة في صحيفة محلية بين يدي شاعرٍ كبير، من القطر العراقي الشقيق، وقد طُلب مني التحفظ على اسمه بناءً على رغبته، كان الشاعر ضيفاً على وزارتنا وقد أعجب بما كتبته، وتأثر فيه أشد التأثر، وطلب مني شخصياً أن أبحث عن بعض أعمالك الأخرى على شبكة الانترنيت، فقرأها مراراً، حتى إنه خصص خلال أمسية شعرية له خمس دقائق كاملة ليذكر هذه المصادفة على مسامع الحضور، ويعرفهم على اسمك وعلى مقتطفات من أعمالك التي على ما بدا عليه أنها أذهلته حتى إنه قال حرفياً: «.. إن هذا الرجل فاجأني بكلماته ... لأنه من الأدباء القلائل الذين لم أتمكن من استباق ما يرمون إلى قوله، إنه يخرج من حيث لا أتوقع خروجه، ويغيب حيث يصعب على الكبار الغياب، إنه ينقل خياله على الورق بطلاقة، و يستمد جمالية كلماته من الوئام بين قلمه وذاته ..» إذاً وباختصارٍ شديد، فقد طُلب مني، بعد هذا الاعتراف المهم من شاعرٍ بحجمه أن ألتقيك وأدعوك بما تملكه من أعمال أدبية إلى الوزارة، ومن ثم إلى المديرية في دمشق لإلقاء الضوء عليك، وبالطبع هناك إجراءات أخرى من ضمنها التنويه بأعمالك على مستوىً عالٍ، وطباعتها على حساب المديرية، وتعميمها وفقاً للأصول المتبعة على جميع المراكز الثقافية ودور الكتب العامة بموجب قرارٍ وزاري واضح .

تسمر الأستاذ على مقعده، وتخشب لسانه، وبرقت عيناه منبئةً بدمعٍ غزير، وبدأ الارتعاش يتسرب إليه من أسفل قدميه حتى استقر فوق شفتيه، لم يتلق الصدمة فقط؛ بل أصبح هو الصدمة عينها، انفجار بركاني تحت ستار من جلد، راودته شهوة البكاء كطفل، فلطالما كان البكاء بالنسبة إليه حالة ترميم لمشاعره وأحاسيسه عندما يمسها هيجان مفاجئ .

وجاء صوت الدكتور مباغتاً ليوقظه من هذيانه ..

ـ ما ردك يا أستاذ ..؟

أومأ الأستاذ برأسه قائلاً بصوت مبحوح ومتقطع:

ـ أنا ... أنا يا دكتور ... إليك اسمي الثلاثي ... و..ورقم بطاقتي الشخصية ورقم هاتفي .. الأرضي .. أنا .. أنا لا أملك هاتفاً جوالاً ... لكن إن استدعت الضرورة فسوف ...

قاطعه الدكتور وهو يقف ممسكاً بحقيبته، وكأنه توقع ردة فعله المختلجة قائلاً :

ـ جميع المعلومات لدينا يا أستاذ، ونحن ننتظر تشريفك غداً، الساعة الثانية عشرة ظهراً إلى مكتبي في الوزارة، وإلى ذلك الوقت أتمنى لك وقتاً سعيداً .

صافحه وخرج من باب المكتب بهدوء رجلٍ عظيم أتم عمله على أكمل وجه، وقد تعلقت بأطراف معطفه الطويل توسلات بكماء تقول : لماذا غداً .. الآن .. الآن .. الآن يا دكتور .. خير البر عاجله ..

جلس مجدداً على مقعده، وقد تراخت أطرافه، وانهمرت بضع قطرات ٍ من الدمع الدافئ على خديه تبحث بين أخاديد وجهه عن طريقها إلى السقوط، وتحول اصفرار وجهه إلى احمرارٍ شديد، وأخذ يحدث نفسه بصوت يخرج من صدره بقوة هائلة، ويضبطه عند مخرج أنفاسه بحزمٍ، فكان كمن يحاول أن يطفئ شمعة لا يطالها سوى بصره، وبرزت أوردة رقبته بطريقة مفزعة، وتهادى في أرجاء المكتب صوته المكبوت :

مئات المحاولات أيها العجوز، بل قل آلاف المحاولات ولم تنجح، وهاهي مصادفة ٍ مارقةٌ تسند عجزك المتهالك بفرصة جديدة. أَكُتب لك أن تحيا المجد في هرمك ..؟ أكتب لدواوينك التسعة وعشرات القصص والمقالات أن ترقد في كهفها وتلتحف العتمة، إلى أن تأتي يدٌ مجهولةٌ وتكتشف الإنسان الأول بداخلها ..؟ وأين أنت الآن...أين أنت من تلك الشهرة التي حلمت بها، ولم تتح لك مفاتيحها سوى بآخر لحظة ...؟ هل سيتعرف إليك أدبك وتعرفك قصائدك بعد كل تلك السنين..؟! أم أنها ستتبرأ من أبوتك، وترفضك، وتبحث عن رجل آخر.. بشعرٍ أسود وظهرٍ منتصبٍ وعينين تفيضان نزقاً وحماسة....؟! آه لتلك الأيام أيها العجوز، إنك لسوف تخجل أن تلقي قصائدك على منابر الشهرة، فشفتاك ما عادتا تقويان على زخم الكلمات كما في الماضي، ويداك لا تومئان سوى بالهرم والخضوع الرحيب، وستكون هناك متفرجاً على كلماتك في الظل، لأنك لم تعتد الأضواء ولم ....

انتفض الأستاذ فجأةً كمن تعرض للدغة أفعى، وشعر بضيق في صدره رافقه تسرعٌ في وتيرة أنفاسه، وما هي إلا لحظات حتى تسربت الطمأنينة إلى داخله مع صوت آتٍ من داخله، من ثنايا رغباته التي لم تأخذ من الواقع يوماً منطلقاً لها، وراح الصوت يحدثه بثقة وغبطة بالغتين:

جاءك المجد أيها الشاعر الكبير، وأنت في العمر الذي يسمح لك التعاطي معه بحكمه، وها هو التاريخ يفتح ذراعيه لك معانقاً ومتأسفاً ومعتذراً عن تجاهله لك كل هذه السنين، لا يعتذر التاريخ إلا من العظماء، فصافحه أيها الشعر العظيم واعف عن زلاته، فقدر الكبار ألا يُنصفوا أبداً .....

يتصبب العرق فجأةً على جبينه، ويشعر بألم شديد، ويزداد الألم شيئاً فشيئاً، ويستطيع بعد لحظاتٍ من تحديد موضعه، إنه في يده اليمنى، بين إصبعيه الممسكين بلفافة تبغه، أحرقه جمر اللفافة فنهض فجأةً عن مقعده، وألقى باللفافة على الأرض مذعوراً. كان العرق يبلل جسده المرهق، وقد ترك السنا طعمه فوق جفنيه. نظر حوله برعبٍ شديدٍ، وخرجت من فمه كلماتٌ مبعثرةٌ ...متى ...؟ ... كيف...؟ أنا لا .....وأخذ يبحث في جيوبه عن بطاقة الدكتور... لا شيء، فخرج مسرعاً من مكتبه إلى أن صادف الحارس في الممر، وسأله بصوتٍ مرتعد:

_ أين ذلك الرجل الذي... هل دخل أحد إلى مكتبي ..؟

فأجابه الحارس ببرود شديد :

_ أنا يا أستاذ، كنت قد جئتك بالشاي، وقد وجدتك غافياً، ففضلت ألا أزعجك، وخرجت من مكتبك بهدوء .

وضع يديه على حائط الممشى. كانت رجلاه تخونانه، فلا تقويان على الوقوف، وكان العجز يتسرب بتدفق ٍ لم يعهده من قبل إلى كيانه، وقد تسرب برفقته ... تقاعده وشتات أحلامه ودواوينه الخمسة، ووجه زوجته المتجهم، وغرفته الصغيرة، والكثير الكثير من الأمور التي تحتاج إلى علاج بعد النكسة الموجعة من جراء آخر أحلامه ..

«عـــــدوي»

قصة وترجمة :
الكاتب المستشرق الأذربيجاني زاهد شاه سواروف

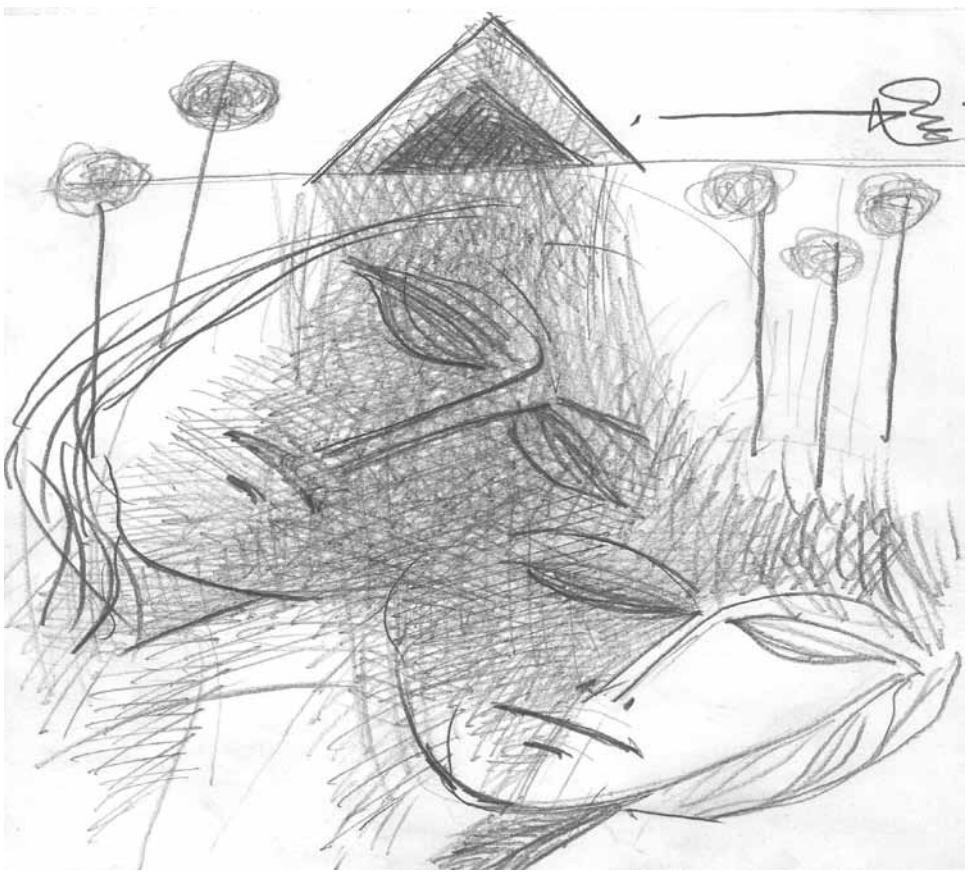

صادفته في أحد شوارع موسكو، في البداية لم أصدق عينيَّ، لأنه لم يتبادر إلى ذهني في يوم من الأيام أني سأصادفه، في الحقيقة لم أرغب في رؤيته، لأنه كان عدوي، وقد جردني من كل ما أملك، مما دعاني لأن أهرب من بلدي، وقد سلبني حبي الذي لا يعرفه أحد غيري. كنت أحب فتاة ذات أصل وجاه وثروة، وكانت هذه الفتاة جارتنا. حينذاك لم يكن لحبي لها حدود، غير أن تلك الفتاة لم تكن تنظر إليَّ حتى من طرف عينها، لأنني لست من مستواها من كل الجوانب، فقد كنت يتيماً منذ ولادتي.

لم أكن أتذكر أمي، وذكرياتي عن أبي كانت ضعيفة جداً، وليس لديّ أحد في الحياة سوى جدتي. وحتى في قريتي التي تحتضنها الجبال لا يوجد لي أي قريب.

وعلى الرغم من كوني يتيماً، لم يزعجني أحد من أهالي قريتي. ولم أشعر بأنني أكبر وأنا يتيم، إلا عندما تجرني التدابير في مدرسة القرية. وحتى أنا لم اكن أشعر نفسياً بأني يتيم، وأحياناً تقدم المدرسة المساعدة للأيتام والأطفال الفقراء، وسواء أرغبت أم لم أرغب فإن اسمي يدخل في قائمة الفقراء والأيتام. ويزداد شعوري باليتم عند قراءة اسمي، وفي كل مرة بعد هذه المراسيم لا أرغب في الذهاب إلى مدرستي، ولكنني كنت مرغماً على الذهاب إلى المدرسة، ولا أرغب أن أكون من المتخلفين عن زملائي في الدراسة، وفي نهاية المطاف، أجبر نفسي بعد مقاومة طويلة على الذهاب إلى المدرسة. وفي هذا الوقت أنزوي مع ذاتي وأبكي بحرقة وبشكل صامت على مرارة حياتي.

وأقول لماذا عذبني الله، ولأي ذنب جنيته. بعد هذا الوقت سأبتعد عن الآخرين وأكون مع نفسي، وسأبذل كل جهودي لعدم مجادلة الآخرين، لأن كل جدل مع الآخرين ينتهي بالضرب (بمشكلة) وفي الوقت نفسه سأضربهم أو سيضربونني، وفي أغلب الأحيان سيضربونني، وفي النهاية حتى لو ضربتهم فإن أهلهم أو إخوتهم سيضربونني. ولم يكن هناك أحد يدافع عني، بالرغم من أن أهالي قريتي لا يضربونني، وفي النهاية فإن كل كلمة سيئة تؤثر في نفسي.

كانت كلمة «يُتْم» تبرز في كل مكان، وأيام كثيرة أكون جائعاً وكانت لي جدة كبيرة في السن، وكان تقاعدها البالغ 21 روبل لا يكفيها للطعام وكانت معيشتنا مقسمة بين الجوع والشبع، وكنت في هذا الوقت أعذب جدتي، وأعذرها وإذا رجعت في يوم من الأيام إلى البيت، ولم أجد طعاماً أصرخ بصوت عال وأحدث مشاكل... وأقول لها بصوت عال جداً... لا أعرف أي شيء، إنني جائع وأريد طعاماً وأقوم بضرب رأسي بالجدار، بعد ذلك تقوم جدتي بمغادرة المكان لجهة غير معلومة وتعود بعد فترة وجيزة ملتحفة بالشال وواضعة يدها تحته مخرجةً خبزاً وجبناً تقدمه لي... وتقول لي: خذ يا بني كل ولا تبكِ، قائلة: «فداؤك جدتك» وأنا آخذ الخبز والجبن من يدها بشكل نهم، وأمضغه بتلذذ، بعد ذلك أركض للعب مع أصدقائي كأسعد ولد في العالم، وهذه الحالة تتكرر كل يوم تقريباً.

وفي يوم من الأيام شاهدت جدتي باكيةً تحت شجرة التوت الموجودة خلف بيتنا، وكانت تأتي إلى هذا المكان كثيراً، وأحسست بأن جدتي تأتي لهذا المكان لأجل البكاء وعندما تقربت منها و سألتها عن سبب بكائها مسحت جبيني وضمتني إلى صدرها وقالت: أخاف أن أموت وليس هناك من يرعاك إلى أن تكبر و لا أعرف عند من أتركك عند مغادرتي الحياة، ورددت هذه الكلمات وهي تقبلني مرةً أخرى.

أجبتها لا يا جدتي الغالية أنت أجمل وأقوى واحدة في العالم، لا تخافي أنت، أن تموتي و في هذا الوقت مسحت بيدي الوسخة دموعها من على خديها وأقول لها أنا سأكبر وأشتغل وسأشتري كل ما تطلبينه، اللحم والرز والزبدة، ويا جدتي العزيزة ستقومين بطبخ (البلوف) (1) البرياني ورائحة (البلوف) ستصل إلى كل جيراننا ليعلموا بأن نكهة بلوفنا هي ألذ وأطيب من رائحة ونكهة بلوفهم لأن جدتي تعد البلوف أحسن من كل أهل القرية.. أليس ذلك صحيحاً يا جدتي العزيزة، متعلقاً برقبة جدتي، طبعاً أكيد يا ولدي العزيز.. طبعاً يا ولدي العزيز ماسحةً الدموع من عينيها، مؤرجحةً إياي. وعلى مر السنين كنت أكبر وأفهم أكثر فأكثر:

وفهمت وضعي وإرشادات جدتي وتوجيه مدرسي (أرشاد) الذي قال لي: ادرس يا ولدي...

بالرغم من كل ذلك كنت أحب تلك الفتاة، وبكل آمالي... وكنت أكتب لها أشعارًا كلّ ليلة... وأقول لنفسي إني سأقرأ غداً كلّ أشعاري لها، لأقول كل ما في قلبي، ولكن عندما أراها لا ينطق لساني بحرف من أشعاري، وأنسى كل شيء عند رؤياي لها.

وفي يوم من الأيام تقدم شاب من قريتنا لخطبتها، وفي اليوم نفسه، قتلوا محبتي التي كانت تملأ قلبي، ولو كانت لي إمكانية لأقمت الدنيا رأساً على عقب، وقد وافقت على عذابات حياتي لسوء حظي. وفي هذه السنة توفيت جدتي وعيونها شاخصة لي. وهي تفارق الحياة.

ماتت جدتي في إحدى أيام الربيع الممطرة. فارقت الحياة وهي تنظر إلي محاولةً أن تقول شيئاً، وقد ماتت من دون أن تستطيع أن تقول لي أية كلمة. وفي ذلك الوقت كنت أبكي ليلاً ونهاراً.

ولأمر ما أشفقت على جدتي لأنها لم تحضر لي البلوف، ولم تنتظر جدتي اللحم والرز... يا إلهي كم حاولت أن أجعلها سعيدة، ولكن... الشخص الوحيد القريب لي قد غاب، وأصبحت وحدتي تخنقني وتدفعني خطوةً خطوة. وفي أحد الأيام غادرت قريتي العزيزة مجبراً تاركا أمي وأبي والبنت التي أحببتها مع خطيبها والبلوف الذي لم تعد تعده جدتي، وفي النهاية بيت والدي الفقير والبارد... ثم أصبحت اشتاق جداً لقريتي، ولم يفارقني هذا الإحساس طوال حياتي، لكني قد عاهدت نفسي على ألاّ أعود إلى قريتي إلا بعد أن أكون شخصاً جديراً بالعودة (كبيراً ومحترماً) لهذا المقصد قطعت الطريق الطويل لكني لم أحصل على ما أردت، وأخذ إحساسي بالعودة إلى قريتي يتزايد يوماً بعد آخر، وفي آخر الأيام لم أجد المكان الملائم لنفسي. هل تعرف كم أردت العودة إلى قريتي التي تركت فيها كل ما أملك وأسير على آثار طفولتي الصعبة والسعيدة.

وفي أحد الأيام جاء الغرباء واحتلوا قريتي، وطردوا أهلها وهرب الكل باتجاهات مختلفة نجاةً من القتل (الموت) تاركين بيوتهم الغالية وغالباً ما فقدوا بعضهم البعض، والبعض منهم قتل في اليوم نفسه، وقد شاهدتهم جميعاً في خيالي، الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم.

هذا الذي صادفته هو «عـدوي» وطـرده من القرية جعلني أولاً لم أصدق عينيَّ وعلى الرغم من مرور السنين لم يتغير كثيراً وللوهلة الأولى لم يعرفني ثم بعد ذلك عرفني، وعندها كان مسروراً جداً، مثلما وجد شقيقه المفقود من زمان فاحتضنته وضممته الى قلبي وقبلته قبلةً لم أقبل أحداً بعمري مثلها.

وفي هذه اللحظة كان هو أقرب شخص لي و أعز إنسان لي وأخذته إلى اقرب مقهى وبدأت أسأله عن كل أهل قريتي شخصاً شخصاً من الكبار الى الصغار وأسأله عن الأشخاص الذين أعرفهم ولا أعرفهم لأن كل ذلك كان ضرورياً لي- سألته عن بيتي، سألته عن شجرة التوت و هل ما تزال موجودة خلف بيتنا... «بيتكم تهدم ولكن شجرة التوت موجودة حتى الآن – واستمر قائلاً - كانت ثمارها لذيذة ومحصولها وافر كل سنة».

وأثناء حديثه نسيت نفسي وسرحت في خيالي وكنت أستمع لحديثه مقطعاً، وكنت أعرف أنه يتكلم من حركة شفاهه، وفي هذا الوقت، كنت أفكر بأن كل أهل قريتي مثلي تعساء، ولكني كنت أقدمهم تعاسةً. ففي ذلك الوقت هم كانوا سعداء، وأنا حزين، وحالياً بحكم الزمن أصبحوا تعساء مثلي.

وهذا هو الذي حسبته في ذلك الزمان عدوي جالسٌ الآن أمامي ويذكرني طفولتي وفي هذا الوقت أرى في عمق عيونه الحزن واسأله هل يوجد حل لهذه المصيبة؟ وبدلاً من الإجابة رفع كتفيه ولم يجد الجواب المناسب ولا أدري لأي سبب يتهرب من النظر إلى عيوني و كأنما هو خجلٌ.

وكنت أريد منه أن يتحدث لي عن كل شيء وعن كل الناس بشكل مفصل وقبل كل شيء أريد أن اسأله عن زوجته، لأمر ما لم أجد الجرأة لأسأله وكأنما فهمني فأجابني لي ثلاثة أولاد وأكبر أبنائي اسمه مثل اسمك، عندما سمعت هذه الكلمات شعرت بقلبي يتوقف، وسألته لماذا اخترتم هذا الاسم فأجاب: لا اعرف، زوجتي سمته قائلاً ومحولاً نظره إلى نقطة مجهولة على الجدار خلفي.

و في هذا الوقت شعرت بشيء ساخن في داخلي، ومرةً ثانية عدت إلى عالمي ومرة أخرى لم أعد أسمع حديثه معي إلا عندما ذكر اسم البنت شعرت برعشة فاستيقظت من خيالي وسألته ماذا قلت؟- أردت أن يعيد ما قاله.

فرفع رأسه ناظراً إلي ساحباً دموعه في كفه مكرراً اسم البنت بصوت خافت يرحمها الله.

---

(1) - أكلة اذربيجانية.

بين الأزمة والثقافة والرغبة /تتمة/

بالوعود المفرحة على حين تخفي له شراً مستطيراً... فالرئيس أوباما وقف في خطابه السنوي ينادي بالحقوق الدولية للشعوب، وبدعم حرية أبناء المنطقة، بينما يمارس التحريض وإثارة الخلاف بين السوريين حين ينحاز إلى دولة الكيان من جهة وإلى المعارضة هنا وهناك من جهة أخرى، ويرغب في تزويدها بالسلاح...

كنا نعتقد أن كل ذلك مناورة منه لاحتواء مواقف المعارضة بيد أن تصريحات وزير خارجيته (جون كيري) في الدوحة إبان زيارته لها في (2013/3/5م) لم تزد على أن تكون أقرب إلى النفاق والخداع أو أنها كانت كذلك لعدم وضوح التصور الدقيق للحل السياسي الذي تضمنه بيان جنيف المؤرخ في (2012/6/30م). فالسيد الوزير صرح بأنه سيقدم السلاح للمعارضة (المعتدلة) من مجلس استانبول، وأن أمريكا «تقوم بما عليها وعلى المعارضة أن تقوم بالضغوط على الحكومة السورية». ويدعم هذا الموقف كل من تصريحات وزيري خارجية بريطانية (وليام هيغ) وفرنسا (لوران فابيوس) وكل منهما أصر على رفع حظر السلاح عن المعارضة، ومن ثم أعلنا بكل وقاحة أنهما سيرسلان السلاح إليها. وقد سارعت الناطقة باسم الخارجية الأمريكية إلى تأييد الموقف البريطاني الفرنسي بتاريخ (2013/3/14م) على الرغم من التوجه الأمريكي لتأييد الحل السياسي... وهذا عينه هو النفاق ذاته. لذلك كله علينا ألا نبقي الأزمة مشدودة إلى المراوحة بالمكان والزمان وفق ما ترغب فيه الدوائر الغربية والصهيونية الحريصة على سفك الدم السوري والوالغة في إسقاط مكونات الدولة وإضعاف الجيش العربي السوري خدمة للكيان الصهيوني الذي دخل في عمليات عسكرية عدوانية حين شنت طائراته هجوماً خاطفاً على مركز البحوث العلمية في (جمرايا)...

فالغرب يحاول تحسين شروط المعارضة؛ في الوقت الذي يريد أن تكون مصالحه مصونة في التسوية... فهل ندرك رغبات الدوائر الغربية الأمريكية الصهيونية؛ في صميم ما نؤمن به من ثقافة وطنية نضالية؟!!.

أزمة الواقع العربي المعاصر /تتمة/

والأيديولوجي، كانت الثورة المضادة بالمرصاد؛ إذ تحركت الولايات المتحدة وحليفتها الطبيعية «إسرائيل» بقوّة، واستنهضت قواها وأدواتها لإضعاف العرب وتفكيكهم، فعزلت مصر عن محيطها العربي، وقيدتها باتفاقية كامب ديفيد، وغذّت الخلافات الداخلية في منظمة (الأوبيك)، ناهيك عن تطوير حقول النفط في بحر الشمال، والتلويح بفزّاعة اكتشاف طاقة بديلة، وقد نفذت أمريكا الخطة التي رسمتها بذكاء بتحويل الإنسان العربي إلى مستهلك للثورة والثروة معاً، وتكريس أسوأ ما يمكن أن يصل إليه، أي الخوف من الثورة، والكسل في الثروة. وبذلك يتحول الواقع العربي إلى واقع مأساوي يسوده التخلف، وتزعزعه الخلافات العربية ـ العربية، وتعمُّه ثقافة الاستهلاك والاستنساخ والتبعية، وهو ـ قبلاً ـ يعيش في وضع لا يحسد عليه.

ومن مظاهر الأزمة على مستوى الفكر السياسي العربي المعاصر، لاسيما في أوقات المحن والهزائم أن العقل العربي يواجه التحديات والنكسات بانفعال شديد وفكر غيبي قدري يكرس الهزيمة، بدل إعمال العقل والتبصر بالواقع والبحث عن الأسباب ورصد الظاهرة والكشف عن الحقيقة من غير ادعاء أو هروب من المجابهة، وإقامة جدل التحدي بين ما هو كائن وما هو ممكن، فننأى عن اللطم على الخدود، وإلقاء المسؤولية على جهة من دون أخرى، وبدل اتخاذ كل الوسائل الممكنة قبل وقوع النكبة أو المصيبة، ثم الاستفادة من الدروس والعبر بعد الهزائم والانكسارات. فالفكر العربي المعاصر ـ في هذه الحالة ـ مستلب ومأزوم ـ لا يتوقع منه إلاّ المزيد من الهروب والنكوص مالم يعد النصر بالسلوك اليومي حيال الواقع المعيش، لأن الفكر هو السلوك ولا شيء سواه، وبإيجاز نحن نحتاج إلى ثورة ثقافية في المقام الأول كي نخرج من هذا النفق المظلم، ونتخطى واقعنا المهزوم، ثم نتعامل مع الآخر على أساس أننا كيان جغرافي قادر على الإقلاع من جديد مثل الأمم التي تجاوزت الهزائم التي لحقت بها كالألمان، واليابان، والصين، وغيرها..

وبهذا الصنيع نكون قد كوَّنا جهازاً مناعيّاً يحمينا من الاختراق الخارجي ويجعلنا نوقف الزحف على جغرافية الوطن العربي كلّه ونتصدى لمحاولات السطو والتهميش والإلغاء، آخذين بعين الاعتبار معادلة الأقوياء في العلم والمعرفة والتقانة وهي أنهم يبنون مجدهم على أنقاض الضعفاء وقبورهم. فمن قصور الفكر العربي المعاصر أننا لم نقم مصالحة مع الذات حتى نفهم الآخر ونتعامل معه بنديّة. إن مشكلة الفكر العربي أنه لم يتمكن من تحليل الواقع الذي نشأ عن الهزائم وما تلاها من هزّات وزلازل، ومن استيعاب الواقع الآني وتداعياته بالرغم من المؤتمرات القومية والإقليمية والإسلامية التي تعقد حين تحلُّ النائبة.

من أخطاء الفكر العربي أننا إذا أردنا مواجهة العدو الجديد, أقصد الأمريكي، نواجهه بالأساليب نفسها التي واجهنا بها الاستعمار التقليدي؛ فأمريكا اليوم تأخذ بفكرة الثورة المضادة لتفريغ الحركات الوطنية والدينية من مضمونها الاجتماعي والمادي والروحي ومدها الشعبي، وتهدف إلى استطباب العالم الضعيف من فرض الثورة، استناداً إلى معادلة مترنيخ النمساوي التي كانت تنادي بشعار: «سيان عندنا من يقصفنا بالمدافع، ومن يقصفنا بالمبادئ».

وقد تلقف كيسنجر هذه المقولة, وطبقها أولاً على المنطقة العربية بخاصة فلم يستوعبها العقل السياسي العربي، ليحتاط لها ويواجهها بفكر مضاد فيبطل مفعولها على طريقة (تلقيح الأطفال بلقاح ضد الأمراض المحتملة)؛ لأنه يعاني أزمة انفصال بينه وبين الواقع؛ فقد تغيّر هذا الواقع ولم يتغير فهمنا له، كما لم يتغير أسلوب المواجهة المعتمد من قبلنا. ولذلك ما نزال نتخبط في هزيمتنا في الوقت الذي يظهر فيه الاستعمار الجديد وكأنه غير قابل للهزيمة.

وليس أدل على ذلك من الوجود الأمريكي المحتل في العراق، فبالرغم من المقاومة العنيفة تجاه الاحتلال والخسائر الفادحة في الجنود، والمعارضة في الداخل والخارج وكراهية الشعوب والأحرار في العالم لأمريكا، فإنها بقيت زمناً ترفض الخروج من العراق، وبهذا الموقف رفض للهزيمة، بل تبحث عن مشاريع وخطط كي تغطي هزيمتها وتمحو عارها.

لأنَّ أمريكا تستند إلى معايير قطعيّة؛ فهي تعدّ نفسها المركز وغيرها الأطراف أو الهامش، وتضطلع بمكافحة الإرهاب واستئصال جذوره، وتقضي على بؤر الفوضى والأنظمة القمعيّة والديكتاتورية في العالم حسب زعمها وإحلال الديمقراطية وفق مسطرتها الأيديولوجيّة، لكن في سعيها هذا تهدف إلى الهيمنة على العالم وتنميطه، باسم العولمة الواهية والديمقراطية المزعومة، على حساب ثقافات الشعوب وهوياتها الوطنية والقومية، وحقها في صياغة مشاريعها ورسم سياساتها تبعاً لاحتياجاتها وطموحاتها.

جواد الحطاب في بروفايل للريح .. رسم جانبي للمطر /تتمة/

فائق حسن سهام رؤاه، فأنجز جداريته، مقابلة لجدارية جواد سليم، ومنها أطلق الشاعر الكبير سعدي يوسف قصيدته الخالدة «تحت جدارية فائق حسن» ليقابلها بعد أكثر من عشرين عاما الشاعر المبدع عدنان الصائغ، فيغني» انتظريني تحت نصب الحرية» ..وهكذا علقت القصائد والأغنيات والرسائل بين طرفي حديقة الأمة، وهي تتنقل في أرجوحة ضخمة منسوجة من حلم، وضعت، بين نصبين خالدين، ليأتي جواد الحطاب ويصعد بها محلّقاً في الأعالي، وليرى من علوّه أشياء وأمكنة ونساء ....

جزء من حركة الناس ....
دكاكين الأغاني
الازدحامات
المعارك الصغيرة) ...
- من مكمنها
تسمع ما تتهامس به
مكتبات شارع السعدون
وتخوض في الكتب التي تستنبط الوردة
من أثلام علي الوردي
جاءتها النداءات، من كورس مجهول
فنهضت ....
مغنّياً عليها -
لأيّة أشرعة تناهى عمودها الفقريّ ؟

...ويرى الحطّاب ما لا تراه العين العاديّة، يرى من خلال، اللعب في اللغة والكلمات ونسج الصور التي تنطق بالدهشة: صحراء ...صحراء ...صح .... لاااااااااااااا.....، تبدو المفردة عابرة، أو مصطنعة، لكنها في الحقيقة، ريشة منتزعة من جناح طائرٍ خرافيّ، سقطت هذه الريشة، على موجة من أمواج دجلة الهادئ، لتعطي معناها، مكتنزا، مقاماً على اعتبار دلالات، نفسية واجتماعية وجمالية، تتعدد وجوهها، لأنها تفضي إلى بوح خاص:سيّان كلّ الطرق مادامت العربات ..
لن تغيّر حدوات جيادها، في باب كلواذا ...
إذن، يجب أن تكون لجواد الحطّاب قراءة خاصة، أولى مميزاتها، الحذق والمحبة، وقوة البصيرة، وأيضا الانصات للمفاجأة التي تحدثها سورات اللغة في مسار النص، أو جسد القصيدة، وبذلك يكون الشاعر المتواري جماليا خلف:الدم:اندحار الكلام
أشرطة صفر
وخطوط طباشير
على أرصفة العصر
.....
.....
توقّف الديك المعدنيّ عن الدوران
فوق بناية «القشلة»
....أجلس عند مفترق الهتافات
تحيط بي النوارس
وتصنع لي الأمواج
حساءً بارداً
من خشب وغرقى
* لا تقولوا وداعاً للتماثيل
و لا تندبوا الزقورات
ثلاثاً ستنبعث بغداد
ثلاثاً ..
ستنبعث .....
.....
حين يكون لا مجد في الانتصار
عليكم
احترام
الهزيمة .

بهذا يختم الحطاب رؤيته ورؤاه، وهو ينسج مشهدا حالما لا يخلو من طرافة وفزع معا، ويشير إلى كلام كثير يتجلى فيه الأمل والتحدي، وقسوة الواقع والحلم، مجدا، للحطاب في تجربته الناجحة، ومجدا للابداع العراقي المتجدد . وأختتم أنا قراءتي المتواضعة له فأستعير هنا ما قاله أدونيس في شعر الشاعر السويدي توماس ترانسترومر لأنه ينطبق تماما على شعر الحطاب..» المجازُ مقترناً بالإيجاز، والحداثةُ، موصـــــولةً بالكلاسيكيّة، والغريبُ، نابعاً من الأليف:تلك هي ثنائيات في شعره، أعدّها مفاتيح أساسيّة للدخول إلى عالمه الشعريّ، وللإحاطة به . فقلّما اجتمع الايجاز والمجاز عنـــد شاعرٍ كما يجتمعان عنده . وقلّما نرى هذا الاقتران العضويّ بين التأصل في الصرامة الكلاسيكية، والانفتاح الأصيل على لغـــة الحداثة، رؤيةً وكتابةً، كما نرى في شعره، وفي هذا كلّه، يبدو الأليف غريباً كأنه يُخْلَقُ للمرة الأولى، ويبـــدو الغريبُ أليفاً، كما لو أنّهُ يُوْلدُ أمـــــام أعيننا، وبين أحضاننا «

جائزة ووترستون لكتب الأطفال

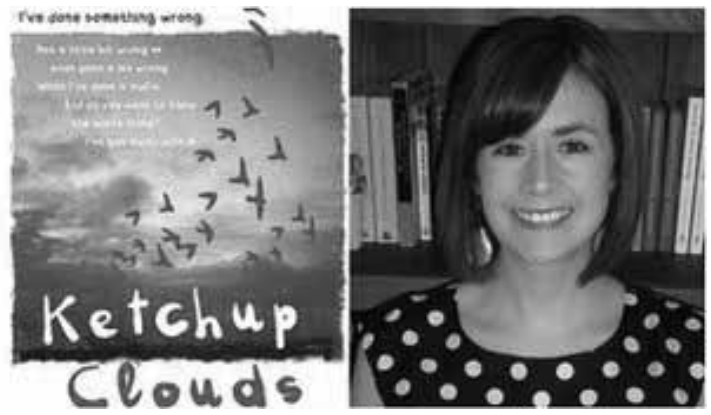

فازت «أنابيل بيتشر» بجائزة ووترستون لكتب الأطفال في بريطانيا عن قصتها «سحب الكتشب» (Ketchup Clouds)، حيث تروي القصة حادثة اكتشاف مراهقة لسر مخيف عبر مجموعة من الرسائل الموجهة لقاتل محكوم عليه بالإعدام، وهو موضوع مثير للقلق لكنه يقدم فكرة جديدة وشجاعة بحسب ميليسا كوكس من ووترستون.

يحدد الفائز بالجائزة عبر تصويت المكتبات من مختلف أنحاء بريطانيا، وتُمنح لأفضل كتاب مصور ولأفضل عمل روائي للأطفال ما بين 5-12 سنة, ولأفضل كتاب للمراهقين, يحصل الفائز في كل منها على ألفي جنيه استرليني ومن ثم يتم اختيار العمل الأفضل من بينها ليحصل صاحبه على ثلاثة آلاف جنيه استرليني إضافية، حيث حصلت هذا العام «سحب الكتشب» على جائزة المراهقين وجائزة أفضل عمل.

يذكر أن «سحب الكتشب» هي التجربة الثانية لأنابيل بيتشر بعد روايتها الأولى «أختي تعيش على رف المدفأة» التي كانت من ضمن الأسماء المرشحة للفوز بالجائزة العام الماضي

كائن اليقين

ضمن إصدارات دار نون للطباعة والنشر والتوزيع أبصر النور ديوان «كائن اليقين» للشاعرة مرشدة جاويش.

يحتضن الديوان مجموعة من الرؤى والأحاسيس التي سكبتها الشاعرة عطراً بين السطور وفق تفاعلها مع ما يدور حولها، فهامت روح فلسفية شعرية عالية في فلك القصائد المشحونة بالعاطفة والألم والأمل والوطنية ضمن إطار حداثي يحاول قدر الإمكان الابتعاد عن الإغراق في الرمز والانحياز إلى الرقيق من الإيقاع والعفوية في التعبير.

في الروح متسع لموسم جلنار

ضمن سلسلة الشعر من إصدارات اتحاد الكتاب العرب صدر للشاعر عبد الجبار طبل مجموعة «في الروح متسع لموسم جلنار».

يهيم بين صفحات الديوان فيض من مشاعر تدور في فلك الأم محور الحياة وجذوة استمرارها إضافة إلى حواريات من أمل وألم مع أدباء وشعراء ووجدانيات رقيقة يحمل معظمها بصمات الحنين والغربة والقهر والرحيل، وغزليات رقيقة سخّر الشاعر لها شحنة عميقة من الأحاسيس الشفيفة.

مجلة «أسامة» في إصدار جديد

صدر العدد الجديد من مجلة أسامة وهو العدد 717- شباط 2013 وتضمن العدد مجموعة من المواضيع المتنوعة التي تخص الطفل, أما هدية العدد فهي الكتاب الشهري الذي جاء تحت عنوان «من حكايات ألف ليلة وليلة», سيناريو وإعداد دلال حاتم.

كاتبات وقصص- مختارات من القصص القصيرة المكتوبة باللغة الإنكليزية

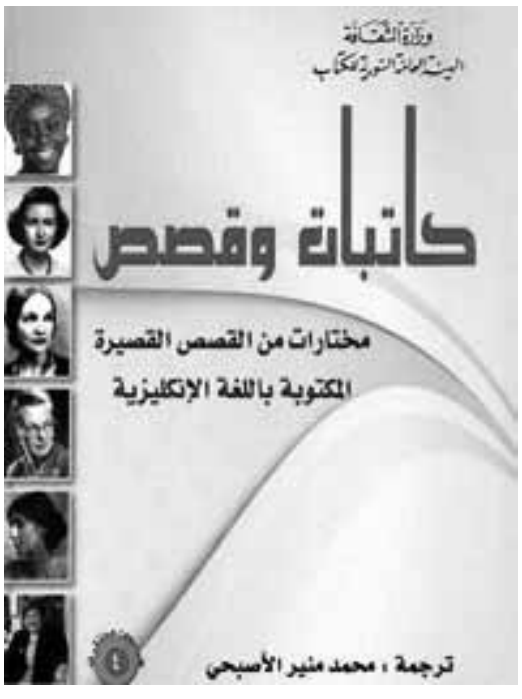

ضمن إصدارات وزارة الثقافة- الهيئة العامة السورية للكتاب صدر كتاب « كاتبات وقصص- مختارات من القصص القصيرة المكتوبة باللغة الإنكليزية» ترجمة محمد منير الأصبحي. يتضمن الكتاب مجموعة من القصص لأديبات من جنسيات مختلفة إلا أن أمريكا وبريطانيا حصدتا القسم الأكبر منها، وتتناول القصص عبر شخصياتها النسائية العلاقات المختلفة للمرأة في المجتمع وتواصلها معه وتأثيرها فيه.

الأسبوع الأدبي

المراسلات:
الجمهورية العربية السورية - دمشق -ص.ب(3230) - هاتف 6117241-6117240
-فاكس 6117244- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير. هاتف الاشتراكات 6117242

ثمن العدد داخل القطر 15ل.س - في الوطن العربي: 0,5 $ خارج الوطن العربي1$ أو ما يعادله. تضاف أجور البريد للمشتركين خارج سورية

الاشترك السنوي -داخل القطر:أعضـــاء اتحاد الكتاب العرب 500 ل س - للأفـــراد1000ل.س -وزارات ومؤسسات1217ل.س - في الوطن العربي:للأفراد300 ل.س أو30 $ - للوزارات والمؤسسات 4000ل.س أو40$-خارج الوطن العربي:للأفراد 6000ل.س أو 120$ - للمؤسسات7000ل.س أو140$ والقيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفي لأمر اتحاد الكتاب العرب -دمشق ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الآراء والأفكار التي تنشرها الصحيفة تعبر عن وجهات نظر أصحابها

www.awu.sy
E-mail : aru@tarassul.sy

للنشر في الأسبوع الأدبي

يراعى أن تكون المادة:
- غير منشورة ورقياً أو عبر الشابكة.
- منضدة ومراجعة ومدقّقة مع مراعاة التشكيل حين اللـزوم، وعلامات الترقيم.
- لا تتجاوز المادة المرسلة /800/ ثمانمئة كلمة.
- يرفق مع المادة (C.D) أو ترسل عبر البريد الإلكتروني.
- يرفق مع المادة الصور المناسبة إذا لزم الأمر.
- لا يرسل الكاتب أكثر من مادتين.

الموقف الأدبي في إصدار جديد

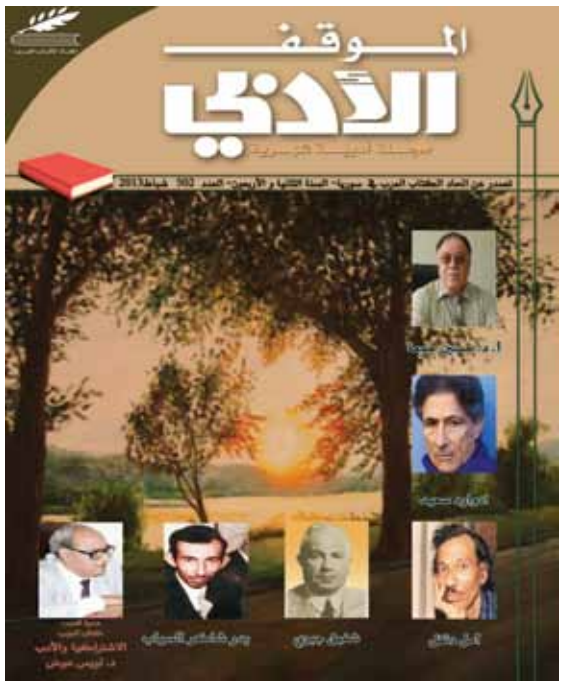

صدر العدد /502/- شباط 2013 من مجلة الموقف الأدبي.

تضمن العدد باقة من البحوث والدراسات والقصائد والقصص القصيرة والقراءات النقدية، بينما تناول باب أسماء في الذاكرة شفيق جبري ومواقفه الفكرية والأدبية.

نافذة العدد تناولت تجربة د. طالب عمران مع الخيال العلمي والمصطلح وكان حوار العدد مع الشاعر العراقي مهدي محمد علي.

أما كتاب الجيب المرفق مع العدد فهو بعنوان» الاشتراكية والأدب» للدكتور لويس عوض.

الأمين العام الأول لاتحاد المؤرخين العرب في ذمة الله

بعد صراع مرير مع مرض ألم به منذ شهور انتقل إلى رحمته تعالى الدكتور حسين أمين, شيخ المؤرخين العراقيين وأول أمين عام لاتحاد المؤرخين العرب عن عمر ناهز الثامنة والثمانين عاماً.

ولد الدكتور حسين أمين عبد المجيد القيسي، في بغداد (محلة الطوب) قرب الباب المعظم عام 1925، ودرس المرحلة الابتدائية في المدرسة المأمونية ابتداء من عام 1931، وتابع دراسته في المتوسطة الغربية، ثم الثانوية المركزية عام 1941.

و يعد المؤرخ الراحل عالماً بارزاً في الكتابة المنهجية التاريخية, وقد رفد المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات المهمة التي تعد مراجع في الكثير من المؤسسات الأكاديمية في العراق والوطن العربي والدول الإسلامية منها «المدرسة المستنصرية» بغداد 1960، و«الإمام الغزالي» بغداد 1963، و«تاريخ العراق في العصر السلجوقي» بغداد 1965، و«شط العرب ووضعه التاريخي» بغداد 1981، و«القدس وعلاقتها ببعض المدن والعواصم الإسلامية» بغداد 1988، و«زرقاء اليمامة» بغداد 1988، وحقق «مقدمة في التصوف السلمي» بغداد 1984، وله ، فضلاً عن ذلك، المئات من البحوث والمقالات المنشورة في المجلات العربية والعراقية، إضافة إلى مؤلفات مخطوطة. اشتهر كوجه تلفزيوني في ستينات القرن الماضي حين قدم برنامجا ثقافيا تاريخيا باسم (ثقافة الأسبوع)، كما أسس الراحل (الجمعية التاريخية العراقية) وأصبح رئيساً لها منذ بداية السبعينات من القرن الماضي.

«جندي من الشام»... جديد الكاتب نزار نجار

ضمن إصدارات وزارة الثقافة- الهيئة العامة السورية للكتاب صدر كتاب «جندي من الشام» للكاتب نزار نجار.

الكتاب موجه لليافعين, ويقدم لهم بأسلوب روائي ساحر صورة البطل ضمن مجتمعه وأسرته وفعالياته اليومية, حيث يتركز جل اهتمامه على نصر الجيش والوطن, وتتفوق قيمه الاجتماعية والأخلاقية على الأطماع الدنيوية الفانية، ويحاول الكاتب أن يبرز القيم الوطنية الساميةً فوق كل القيم, فهي التي يُبذل من أجلها الغالي والنفيس.

جندي نزار نجار قادم من عمق التاريخ، يستخدم الفرس والسيف بدلاً من البندقية والدبابة استحضاراً للأمجاد التاريخية وللانتصارات التي ازدهى بها تاريخنا على مرّ العصور، إلا أن هذا الأمر لم يضعف تصوير الحالة الوطنية له التي جسّدتها الأحداث.

الأسبوع الأدبي
جريدة تعنى بشؤون الأدب والفكر والفن
تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق
أسست وصدرت ابتداءً من عام 1986

المدير المسؤول: د.حسين جمعة
رئيس اتحاد الكتاب العرب

رئيس التحرير: غسان كامل ونوس

مدير التحرير: عياد عيد

المدير الفني: نضال فهيم عيسى

هيئة التحرير:
إسماعيل الملحم - د. حمدي موصللي - زهير هدلة
-د. عادل فريجات - مريم خيربك

ليس آخراً

غسان كامل ونوس

يا ثقيل الظل!

إذا لم تفق حتى اليوم، متى ستفيق؟!

إذا لم تفتح عينيك على مشاهد الخراب والدمار والأرض اليباب، ولم تتفتح مساماتك على ما تُخلّفه نفثات الغادرين في الخضرة القَدَريّة والزهرات المواسمية، ولم تتحسّس استشعاراتُك روائح الحريق المعمّم وإفرازات التسميم المنظّم، ولم تلحظ تطلّعاتك ومنبّهاتك ملامحَ القلق ومعالم الأرق في جباه الناس، وعثرات الطفولة وخوف الآتي.. متى ستستيقظ؟!

إذا لم تتبصّر ما أحدثثه رياحٌ تتوسّلها في رياضٍ أخرى، وما فعلثه حوافرُ تستدعيها في مفازات معروفة، ومعابر مكشوفة، ولم تقرأ تصرفات الجهات القادرة حيال حلفائها في الماضي وكلّ وقت، ولم تستوعبْ مجريات الأحداث التاريخية في المنطقة والعالم، وأبعاد الاهتمام المحموم والتحرك المسعور في مرابعنا الأمامية، وخفايا الاتصالات والمرابطة في حدائقنا الخلفية.. ومفرزات التواصل المعلن والتعامل المستور مع أطراف وفصائل.. ولم تتبيّن التحولات في المواقف والتبدلات في جهة الفوّهات.. فما معنى حضورك ودورك ووجودك؟!

هل الصمم يحميك من أنين المحزونين، وصراخ المفجوعين، وحشرجة المكلومين؟! والمكابرة تحرمك من سماع نداء المحتاجين، ودعاء الآملين، ورجاء الصابرين..؟!

أم العناد يبعدك عن رؤية الناظرين بعتب وخيبة، ويغرّبك عن كلمات تعزّي، وعبرات تواسي؟! والجحود يدفعك بعيداً عن لمسة حنان، وخطوة وفاء، ولمّة دفء..؟!

لكنّ أسئلة لا يمكنك أن تتجاهلها على بداهتها؛ لأنّها أساسية، وتساؤلات لا تستطيع التغافل عنها على مرارتها؛ لأنّها صميمية:

ماذا حول إعثار التقدم والنمو في البلد، وتعطيل الحياة العامة والخاصة، وتقطيع السبل، وتضبيب المشاهد، وتفتيت الأسر، وتعنيف المجتمع، وإثارة الفتن والغرائز، وتعويم الأنانية والخلاص الفردي والسلبية، وترويج المخالفة للحصول على مردود ملحّ، أو تعوّدِ الاحتيال لتأمين مادة لازمة للناس مقابل ربحٍ مجزٍ، واستسهالِ الخروج على القانون، لأنّ عفواً متوقعاً صدر وسيصدر، ويطالُ جرائرَ أفظع؟! وماذا عن تخفيفِ نسبة القوى الشابة في التجمعات السكنية لأسباب متعددة: الاستدعاء لحملِ السلاح المشروع دفاعاً عن كيان الدولة ورصيد المجتمع، والإغراء بالسلاح والمال وأشياء أخرى للمشاركة في أعمال غير مشروعة، والنزوح في داخل الوطن، والذهاب إلى الخارج القريب والبعيد؟!

وما شعورك إزاء الذلّ الذي يلحق بالإنسان السوري على الحدود، وفي المخيمات، ومناطق التوزّع والتجمّع والتهرّب، وفي مواقع التفلّت والتحلّل والتمسّح والتورّط والمساومة والخيانة؟!

ماذا حول اغتيال الكفاءات والخبرات النوعية المدنية والعسكرية؟!

وماذا يعني التدمير المنظم للمؤسسات العامة، وخاصة القضائية والتعليمية والبحثية والخدمية؟!

وماذا عن النهب الممنهج للمتلكات الخاصة والأرصدة العامة في كل مصنع ومخزن ومعمل وحقل وبيدر؟!

ومن المستفيد من إفراغ البلد من القوت والوقود، وإغراقه في الظلام والفوضى؟!

ومن المعنيّ بإشغال القوى المسؤولة عن الأمن والأمان والسيادة والدفاع عن الحدود والوجود، واستنزافها من حيث لا تحتسب؟!

ببساطة أكثر، ووجع أكبر:

من المستفيد من إضعاف البلد، وتبديد المقدرات، وإفقار الناس، وتبدّل الأولويات، وتحوّل الاهتمامات، وتعرية النفوس، وإهانة القيم ومكارم الأخلاق؟!

وإذا كانت غشاوة في البداية، ولم يكن في البال أن الأمور يمكن أن تصل إلى هذه الموحلة، فهل بقي من ستر يغطي، وأمر خفيّ؟! وما فائدة وصولك والناس قد رحلوا؟! وما الحكمة في الإصرار على عدم الرؤية، وعدم الالتفات أو التلفّت؟! ولماذا لا تصغي إلى ما تقول، ما زلت نقول، وقد صار ناشزاً، وفاقداً للنضارة والمعنى، وصارت باقة الورد التي تلوح بها حطباً، واللهفة تجاهلاً واكتئاباً؟!

ألم تَستدرك غاياتِ القادمين بلا قلب من بقاع شتى؟! ألم تدرك ما يعلنون وما يحكمون وما يشرّعون، والحدود التي يقيمون؟!

وهل يرضيك تنصيب الزعماء وتوزيع المسؤوليات بعمليات مدبّرة, وتعمية ساذجة؟! إلا إذا كنت تنتظر مثل هذه التعددية الحضارية؟!

ألم تشغلك الحركات المريبة القريبة للأعداء التاريخيين لبلدك وشعبك وأشقائك، والإنسانية جمعاء؟! ألم تستفزّك التحركات الغريبة والتداخلات المقلقة في مناطق التخوم المباشرة مع العدو الصريح المتربص؟!

ألم تهتزّ للمنايا تتوزّع الناس بلؤم انفجار مزدوج، واقتناصٍ فاجر، وانتحار قاتلٍ بين المنبر والمحراب؟!

ألم تتساءل عن مكانك ومسؤوليتك في ما يجري من مآس، وما سيأتي من فواجع؟!

وهل الأمر يحتمل المزيد للبرهان، أم لإشفاء الغليل من دماء الأبرياء وأرصدتهم العمرية والمادية والنفسية؟!

أما آن لك أن تسأل: لِمَ وإلامَ؟! متى، وكيف يكون الخلاص؟!

هل الوعي بهذا يتطلب شهادة وتجربة وثقافة وخبرة، أم عقلاً ووطنية وإنسانية؟!

إذا لم تعِ بعدُ، أو تحسّ أو تفكّر؛ إذا لم تراجع، وتندم؛

إذا لم تفق، يا ثقيل الظل، بعد كلّ ذلك؛ فلا أفقتَ ولا وعيتَ!!

***

ghassan.wannous@gmail.com
www.ghassan.wannous.com